

قُطُوبُ الْحَقِّ عَلَى الدَّلَالِي

شرح مُقدِّمة

رِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي

تأليف

عَبْدُ الْمُحْسِنِ بْنِ حَمْدِ الْعَبَّادِ الْبَنْدَرِ

دَارُ ابْنِ عَفَّانَ

دَارُ ابْنِ الْقَيْمِ

قَطْرَةُ الْحَقِّ لِلدَّانِي

شيخ ومفتي دولة الكويت ابن أبي زيد القيرواني
عليه المجد من جدد العبادة البند

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع	٢٠٠٣ / ١١٧٧٢
الترقيم الدولي	977 - 6052 - 86 - X



دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٢٧٤٥٤٥ - فاكس: ٨٠٥٦٥٥٤
الدمام - مدينة العمال - ص.ب: ٢٠٧٤٥
الرمز البريدي: ٣١٩٥١ بريد الخبر
المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

القاهرة: ١١ درب الاتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٥٠٦٦٤٢٠ - محمول: ٠١٠٥٨٣٦٢٦
الجيزة: تليفكس: ٣٢٥٥٨٣٠ ص ب ٨ بين السرايات
جمهورية مصر العربية
E-mail: ebnaffan@hotmail.com

قَطْفُ الْحَجَلِ الدَّالِي

شَرْحُ مُقَدِّمَةِ

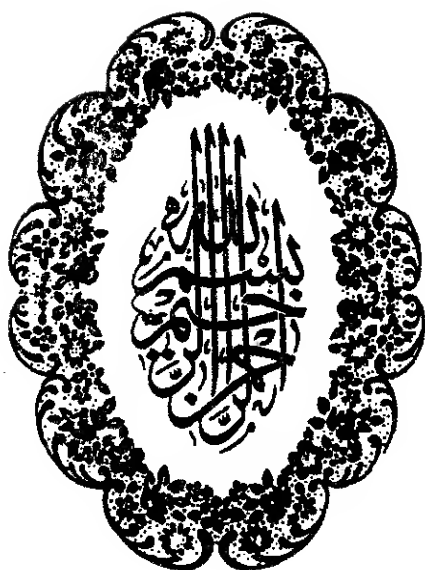
رِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِيِّ

إِعْدَادُ

عَبْدِ الْمُحْسِنِ بْنِ جَمْدِ الْعَبَّادِ الْبَنْدَرِيِّ

دَارُ ابْنِ عَفَّانَ

دَارُ ابْنِ الْقَيْمِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقبوم السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، الذين حفظ الله بهم الملة، وأظهر الدين، وعلى من أتبعهم بإحسان وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن عقيدة أهل السنة والجماعة تمتاز بالصفاء والوضوح والخلو من الغموض والتعقيد، وهي مستمدة من نصوص الوحي كتاباً وسنة، وكان عليها سلف الأمة، وهي عقيدة مطابقة للفطرة، ويقبلها العقل السليم الخالي من أمراض الشبهات، وذلك بخلاف العقائد الأخرى المتلقاة من آراء الرجال وأقوال المتكلمين، ففيها الغموض والتعقيد والخبط والخلط، وكيف لا يكون الفرق كبيراً والبون شاسعاً بين عقيدة نزل بها جبريل من الله إلى رسوله الكريم ﷺ وبين عقائد متنوعة مختلفة خرج أصحابها المبتدعون لها من الأرض، وخلقهم الله من ماء مهين.

فعقيدة أهل السنة والجماعة بدت وظهرت مع بعثة النبي ﷺ ونزول الوحي عليه من ربه تعالى، وسار عليها الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ومن

تبعهم بإحسان، والعقائد الأخرى لا وجود لها في زمن النبوة، ولم يكن عليها الصحابة الكرام، بل قد وُلد بعضها في زمانهم، وبعضها بعد انقراض عصرهم، وهي من محدثات الأمور التي حذر منها الرسول ﷺ، فقال: « وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة »، وليس من المعقول ولا المقبول أن يُحجب حق عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، ويُدخّر لأناس يجيئون بعد أزمانهم، فتلك العقائد لو كان شيء منها خيراً لسبق إليه الصحابة، ولكنها شرٌ حفظهم الله منه، وابتلي به من بعدهم.

والحقيقة الواضحة الجلية أن الفرق بين عقيدة أهل السنة والجماعة المتلقاة من الوحي، وبين عقائد المتكلمين المبنية على آراء الرجال وعقولهم، كالفرق بين الله وخلقه، ومثل ذلك ما يكون به القضاء والحكم، فإنه يُقال فيه: إن الفرق بين الشريعة الإسلامية الرفيعة المنزلة من الله على رسوله ﷺ، وبين القوانين الوضعية الوضعية التي أحدثها البشر، كالفرق بين الله وخلقه، ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَنَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فما بال عقول كثير من الناس تغفل عن هذه الحقيقة الواضحة الجلية فيما يُعتقد، والحقيقة الواضحة الجلية فيما يُحكم به، فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

اللهم اهد من ضل من المسلمين سبيل السلام، وأخرجه من الظلمات إلى النور، إنك سميع مجيب.

وقد أُلّف علماء السنة قديماً وحديثاً مؤلفات تُوضّح عقيدة أهل السنة والجماعة، منها ما هو مختصر، ومنها ما هو مطوّل، وكان من بين هذه



المختصرات مقدّمة الإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي لرسالته، ومقدّمة رسالته على طريقة السلف مختصرة مفيدة، والجمع بين الأصول والفروع في كتاب واحد نادر في فعل المؤلفين، وهو حسن، يجعل المشتغل في فقه العبادات والمعاملات على علم بالفقه الأكبر، الذي هو العقيدة على طريقة السلف.

وهي مع وجازتها وقلة ألفاظها تبين بوضوح العقيدة السليمة المطابقة للفطرة، المبينة على نصوص الكتاب والسنة، وهي شاهد واضح للمقولة المشهورة: إن كلام السلف قليل كثير البركة، وكلام المتكلمين كثير قليل البركة.

ومن أمثلة ما في هذه المقدّمة من النفي المتضمن إثبات كمال الله تعالى قوله في مطلع هذه المقدّمة: «إن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له».

فإن هذه المنفيّات عن الله عز وجل مستمدّة من الكتاب والسنة، وهذا بخلاف النفي في كلام المتكلمين، فإنه مبني على التكلف، ومتّصف بالغموض، ومن أمثلة ذلك ما جاء في العقائد النسفية قول مؤلفها: «ليس بعرض، ولا جسم، ولا جوهر، ولا مصوّر، ولا محدود، ولا معدود، ولا متبعّض، ولا متجزّ، ولا متركّب، ولا متناه».

وهذه المنفيّات لم يأت بالنص عليها كتاب ولا سنة، والواجب السكوت والإمساك عما لم يدل عليه دليل من الوحي، واعتقاد أن الله متّصف بكل كمال، منزّه عن كل نقص، ومثل هذه السلوب لا يفهمها العوام، ولا تطابق الفطرة التي هم عليها، وهي من تكلف المتكلمين، وفيها



غموضٌ وتلبيسٌ؛ يتّضح ذلك بالإشارة إلى واحدٍ منها، وهو نفْيُ الجسم، فإنه يحتمل أن يُراد به ذاتٌ مشابهة للمخلوقات، وعلى هذا الاحتمال يُردّ اللفظُ والمعنى جميعاً؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإن أُريد به ذاتٌ قائمة بنفسها، مباينة للمخلوقات، متّصفة بصفات الكمال، فإنَّ هذا المعنى حقٌّ، ولا يجوز نفْيُه عن الله، وإنَّما يُردّ هذا اللفظ لاشتماله على معنى حقٍّ ومعنى باطل.

وسأتي في كلام المقرئزي (ص: ١٤، ١٥) قوله عن الصحابة: «فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزّهوا من غير تعطيل، ولم يتعرّض مع ذلك أحدٌ منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدلُّ به على وحدانيّة الله تعالى وعلى إثبات نبوّة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحدٌ منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة».

وسأتي أيضاً في كلام أبي المظفر السمعاني (ص: ١٦) قوله في بيان فساد طريقة المتكلّمين: «وكان ممّا أمر بتبليغه التوحيد، بل هو أصل ما أمر به فلم يترك شيئاً من أمور الدّين أصوله وقواعده وشرائعه إلّا بلغه، ثمّ لم يذعُ إلى الاستدلال بما تمسّكوا به من الجوهر والعرض، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرفٌ واحدٌ فما فوقه، فعُرف بذلك أنّهم ذهبوا خلافاً لمذهبهم وسلّكوا غير سبيلهم بطريق مُحدث مُخترع لم يكن عليه رسول الله ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم، ويلزم من سلوكه العودُ على السلف بالطعن والقذح، ونسبتهم إلى قلة المعرفة واشتباه الطرق، فالحذر من الاشتغال بكلامهم والاكتراث بمقالاتهم؛ فإنَّها سريعة التهافت كثيرة التناقض»، وقول أبي المظفر السمعاني هذا أورده الحافظ ابن



حجر في كتاب فتح الباري في شرح قول البخاري: «باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾»، ونقل فيه (٥٠٤/١٣) عن الحسن البصري قال: «لو كان ما يقول الجعد حقاً لبَلِّغَهُ النَّبِيُّ ﷺ». والجعد بن درهم هو مؤسس مذهب الجهمية، ونُسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان؛ لأنه هو الذي أظهر هذا المذهب الباطل ونشره، وأقول كما قال الحسن البصري رحمه الله: لو كان ما يقوله الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين حقاً لبَلِّغَهُ الرسول ﷺ.

وقد رأيتُ أن أشرح هذه المقدمة شرحاً يزيد في جلائها ووضوحها، ويُفصِّل المعاني التي اشتملت عليها، ورأيتُ أن أمهّد لهذا الشرح بذكر عشر فوائد في عقيدة السلف، وقد نظّم الشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني نظماً بديعاً سلساً، رأيتُ من المناسب إثباته مع نصّ المقدمة قبل البدء بالشرح. وقد سَمَّيت هذا الشرح:

قطف الجني الداني

شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني

وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ، وَأَنْ يُوفِّقَ الْمُسْلِمِينَ لَلْفَقْهِ فِي دِينِهِمْ، وَالسَّيْرِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُهُمْ، فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يُوفِّقَنِي لِلْسَّلَامَةِ مِنَ الزَّلَلِ، وَيَمْنَحَنِي الصَّدَقَ فِي الْقَوْلِ وَالْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ بَحِيمٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



ترجمة مختصرة للدين أبي زيد القيرواني

هو عبد الله أبو محمد بن أبي زيد، واسم أبي زيد عبد الرحمن، سكن القيروان، وكان إماماً المالكية في وقته وقُدوتهم، وجامعاً مذهب مالك، وشارحاً أقواله، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، وكُتِبَ تشهده له بذلك، فصيح القلم، ذا بيان ومعرفة بما يقوله، بصيراً بالرد على أهل الأهواء، يقول الشعر ويُجيدُه، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تاماً وورعاً وعفةً، وحاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه وكثر الآخذون عنه.

وعرف قدره الأكابر، وكان يُعرف بمالك الصغير، قال فيه القاسبي: « هو إمام موثوق به في ديانته وروايته »، واجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل، شهرته تُعني عن ذكره، وكان سريع الانقياد والرجوع إلى الحق، تفقه بفقهاء بلده وسمع من شيوخها، وعول على أبي بكر بن اللباد وأبي الفضل القيسي، وسمع منه خلق كثير وتفقه به جلة، وكانت وفاته سنة (٣٨٦ هـ)، له كتاب النوادر والزيادات على المدونة، مشهور أزيد من مائة جزء، وكتاب مختصر المدونة مشهور أيضاً، وعلى كتابيه هذين المعول في التفقه، وله الرسالة، وغيرها من المؤلفات الكثيرة المذكورة في الديباج المذهب لابن فرحون المالكي (ص: ١٣٦ - ١٣٨).

وكل ما مرَّ منقول باختصار من هذا الكتاب، قال فيه الذهبي في أوّل ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/١٠): « الإمام العلامة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب ».

وقال في آخرها: « وكان - رحمه الله - على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام ولا يتأوّل، فنسأل الله التوفيق ».

فوائد برى الشرح

الفائدة الأولى:

منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة: اتِّباع الكتاب والسُّنة على

فهم السلف الصالح

عقيدة أهل السنة والجماعة مبنية على الدليل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، قال الله عز وجل: ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وقال: ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِثْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وقال: ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وقال: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ، وقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، وقال: ﴿ فَلْيَخْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وقال ﷺ في حديث العرياض بن سارية: « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِرْ بِخَيْرِ اخْتِلَافٍ كَثِيرٍ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِنَّا كَأَمْ يَكُونُ أَمْرٌ أَنْ تَقُولُوا: « كُلُّ مَحْدُودَةٍ بَدْعَةٍ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٧٦) وَغَيْرُهُمَا، وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ، وَقَالَ



الترمذي: « حديث حسن صحيح ».

وفي صحيح البخاري (٧٢٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى ».

وفي صحيح مسلم (٧٦٧) عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: « أمّا بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة ».

وروى البخاري في صحيحه (١٥٩٧)، ومسلم في صحيحه (١٢٧٠) عن عابس بن ربيعة، عن عمر رضي الله عنه: « أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، فقال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت النبي ﷺ يقبلُك ما قبلُك ».

وروى البخاري في صحيحه (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »، وفي لفظ لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ».

وما جاء في هذه الرواية أعظم من الأولى؛ لأنها تشتمل على من كان محدثاً أو تابعاً لمحدث.

وروى الإمام أحمد (١٦٩٣٧)، وأبو داود (٤٥٩٧) وغيرهما - واللفظ لأحمد - عن معاوية رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء، كلُّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة ».

وانظر تخريجه وشواهدَه في تعليق الشيخ شعيب الأرناؤوط وغيره على هذا الحديث في حاشية المسند.

وروى البخاري في صحيحه (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه (١٤٠١) عن أنس في حديث طويل، آخره: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». وإنما كانت عقيدة أهل السنة والجماعة مبنية على الكتاب والسنة؛ لأن ما يُعتقد هو من علم الغيب، ولا يُمكن معرفة ذلك إلا بالوحي كتاباً وسنة.

وما جاء في الكتاب العزيز وثبت في السنة فإن العقل السليم يُوافقه ولا يُعارضه، ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كتاب واسع اسمه: درء تعارض العقل والنقل.

والمعول عليه في فهم النصوص ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وما جاء عنهم من الفهم الصائب والعلم النافع، وقد فهموا معاني ما خوطبوا به من صفات الله عز وجل؛ لأن الكتاب والسنة بلغتهم، مع تفويضهم علم كيفية إثبات الله عز وجل؛ لأن ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه، كما جاء عن الإمام مالك بن أنس في بيان هذا المنهج الصحيح، حيث قال عندما سُئل عن كيفية الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وقد أوضح ما كان عليه الصحابة في صفات الله عز وجل الشيخ أبو العباس أحمد بن علي المقرئ المتوفى سنة (٨٤٥ هـ) في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣٥٦/٢)، فقال: «ذِكْرُ الْحَالِ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْذُ ابْتِدَاءِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى أَنْ انْتَشَرَ مَذْهَبُ الْأَشْعَرِيَّةِ: اعْلَمْ



أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مِنَ الْعَرَبِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولاً إِلَى النَّاسِ جَمِيعاً وَصَفَ لَهُمْ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ عَلَى قَلْبِهِ ﷺ الرُّوحُ الْأَمِينُ، وَمَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ تَعَالَى، فَلَمْ يَسْأَلْهُ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَسْرَهُمْ قُرُوبُهُمْ وَبَدُوئُهُمْ عَنْ مَعْنَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا كَانُوا يَسْأَلُونَهُ ﷺ عَنْ أَمْرِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لِلَّهِ فِيهِ سُبْحَانَهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، وَكَمَا سَأَلُوهُ ﷺ عَنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ إِذْ لَوْ سَأَلَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَةِ لَنُقِلَ كَمَا نُقِلَتِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ عَنْهُ ﷺ فِي أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَفِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَا حِمِ وَالْفِتَنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُ الْحَدِيثِ، مَعَاجِمُهَا وَمَسَانِيدُهَا وَجَوَامِعُهَا، وَمَنْ أَمَعِنَ النَّظَرَ فِي دَوَاوِينِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَوَقَفَ عَلَى الْآثَارِ السَّلَفِيَّةِ، عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ قَطُّ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ وَلَا سَقِيمٍ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ - أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَعْنَى شَيْءٍ مِمَّا وَصَفَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِهِ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَلْ كُلُّهُمْ فَهَمُوا مَعْنَى ذَلِكَ، وَسَكَتُوا عَنِ الْكَلَامِ فِي الصِّفَاتِ، نَعَمْ! وَلَا فَرَّقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَ كَوْنِهَا صِفَةً ذَاتٍ أَوْ صِفَةً فِعْلٍ، وَإِنَّمَا أَثْبَتُوا لَهُ تَعَالَى صِفَاتٍ أَزَلِيَّةٍ: مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحَيَاةِ وَالْإِرَادَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ وَالْجُودَ وَالْإِنْعَامَ وَالْعِزَّ وَالْعِظَمَةَ، وَسَاقُوا الْكَلَامَ سَوْقاً وَاحِداً، وَهَكَذَا أَثْبَتُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَا أَطْلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: مِنَ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مَعَ نَفْيِ مِمَّا ثَلَّةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَأَثْبَتُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بِلَا تَشْبِيهِ، وَنَزَّهُوا مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ،



ولم يتعرَّض مع ذلك أحدٌ منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدلُّ به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحدٌ منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة، فمضى عصرُ الصحابة رضي الله عنهم على هذا، إلى أن حدث في زمنهم القولُ بالقدر، وأنَّ الأمرَ أنفة، أي: أنَّ الله تعالى لم يُقدِّر على خلقه شيئاً ممَّا هم عليه ...».

وهذا الذي أوضحه المقرئزي هو ما كان عليه أصحابُ رسول الله ﷺ قبل ظهور الفرق المختلفة، وقد قال ﷺ في حديث العرياض بن سارية الذي مرَّ ذكره قريباً: «فإنَّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وليس من المعقول أن يُقال في شيء من مذاهب هذه الفرق المختلفة في العقيدة التي حدثت في أواخر عهد الصحابة وبعده، كالكدرية والمرجئة والأشاعرة وغيرها، ليس من المعقول أن يُقال في شيء من ذلك: إنَّه الحقُّ والصواب، بل الحقُّ الذي لا شكَّ فيه هو ما كان عليه أصحابُ رسول الله ﷺ، ولو كان شيء من هذه المذاهب حقاً لسبقوا إليه رضي الله عنهم وأرضاهم، فلا يُعقل أن يُحجب حقٌّ عن الصحابة ويُدَّخَر لأناس يجيئون بعدهم، قال إبراهيم النخعي كما في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٩٧/١): «كَمْ يُدَّخَرُ لَكُمْ شَيْءٌ خَبِيٌّ مِنَ الْقَوْمِ لِفَضْلٍ عِنْدَكُمْ».

وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح عند شرحه باب قول الله تعالى:



﴿ يَتَأْتِيَا الرَّسُولُ بِتَلَفٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كلاماً نفيساً لأبي المظفر السمعاني، فقال (٥٠٧/١٣): « واستدل أبو المظفر بن السمعاني بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة المتكلمين في تقسيم الأشياء إلى جسم وجوهر وعرض، قالوا فالجسم ما اجتمع من الافتراق والجوهر ما حمل العرض، والعرض ما لا يقوم بنفسه، وجعلوا الروح من الأعراض، وردوا الأخبار في خلق الروح قبل الجسد والعقل قبل الخلق، واعتمدوا على حدسهم وما يؤدّي إليه نظرهم، ثم يعرضون عليه النصوص فما وافقه قبلوه وما خالفه ردّوه، ثم ساق هذه الآيات ونظائرها من الأمر بالتبليغ، قال: وكان ممّا أمر بتبليغه التوحيد، بل هو أصل ما أمر به فلم يترك شيئاً من أمور الدين أصوله وقواعده وشرائعه إلّا بلغه، ثم لم يدع إلى الاستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرف واحد فما فوقه، فعرف بذلك أنّهم ذهبوا خلافاً مذهبيهم وسلكوا غير سبيلهم بطريق محدث مُخترع لم يكن عليه رسول الله ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم، ويلزم من سلوكه العود على السلف بالظعن والقُدْح، ونسبتهم إلى قلة المعرفة واشتباه الطرق، فالحذر من الاشتغال بكلامهم والاكتراث بمقالاتهم؛ فإنّها سريعة التهافت كثيرة التناقض، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلّا وتجد لخصومهم عليه كلاماً يوازنه أو يقاربه، فكلُّ بكلِّ مقابل، وبعضٌ ببعضٍ مُعارض، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أنّا إذا جَرِينَا على ما قالوه وألزمنا الناس بما ذكروه لزم من ذلك تكفيرُ العوام جميعاً؛ لأنّهم لا يعرفون إلّا الأتباع المجرّد، ولو عُرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم فضلاً عن أن يصير منهم صاحب نظر،



وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه أئمتهم في عقائد الدين والعض عليها بالنواجز، والمواظبة على وظائف العبادات وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبهة والشكوك، فتراهم لا يحيدون عما اعتقدوه ولو قُطِّعوا إرباً إرباً، فهيناً لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كُفِّر هؤلاء وهم السواد الأعظم وجمهور الأمة، فما هذا إلا طيُّ بساط الإسلام وهدمُ منار الدين، والله المستعان..»

وما جاء في كلام أبي المظفر من ذكر خلق العقل فيه نظر؛ قال ابن القيم في كتابه المنار المنيف (ص: ٥٠): « ونحن نبه على أمور كلية يُعرف بها كون الحديث موضوعاً » إلى أن قال (ص: ٦٦): « ومنها أحاديث العقل، كلها كذب ... وقال أبو الفتح الأزدي: لا يصحُّ في العقل حديث، قاله أبو جعفر العقيلي وأبو حاتم ابن حبان، والله أعلم..»

وقد نقل الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري نقولاً عن جماعة من السلف في إثبات الصفات من غير تشبيه أو تحريف أو تعطيل، وختم ذلك بكلام نفيس له، ومما قاله (١٣/٤٠٧ - ٤٠٨): « وأخرج البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي قال: كان سفيان الثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدِّدون ولا يشبهون، ويروون هذه الأحاديث ولا يقولون كيف، قال أبو داود: وهو قولنا، قال البيهقي: وعلى هذا مضى أكابرنا.

وأُسند الألكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن رباً لأحاديث التي جاء به الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ من غير تشبيه ولا تفسير، فمن



فسر شيئاً منها وقال بقول جهم فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وفارق الجماعة؛ لأنه وصف الرب بصفة لا شيء.

ومن طريق الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي ومالكاً والثوري والليث ابن سعد عن الأحاديث التي فيها الصفة؟ فقالوا: أمرؤها كما جاءت بلا كيف.

وأخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: لله أسماء وصفات، لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يُدرَك بالعقل ولا الرؤية والفكر، فنثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وأسند البيهقي بسند صحيح عن أحمد بن أبي الحواري، عن سفيان بن عيينة قال: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

ومن طريق أبي بكر الصُّبَعي قال: مذهب أهل السنة في قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قال: بلا كيف، والآثار فيه عن السلف كثيرة، وهذه طريقة الشافعي وأحمد بن حنبل.

وقال الترمذي في الجامع عقب حديث أبي هريرة في النزول: وهو على العرش كما وصف به نفسه في كتابه، كذا قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من الصفات.

وقال في باب فضل الصدقة: قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا ننوهم، ولا يُقال كيف، كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم



أَمَرُوهَا بِلاَ كَيْفٍ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَأَنْكَرُوهَا، وَقَالُوا هَذَا تَشْبِيهٌ. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَه: إِنَّمَا يَكُونُ التَّشْبِيهُ لَوْ قِيلَ يَدٌ كَيْدٌ، وَسَمِعْتُ كَسَمْعٍ.

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَائِدَةِ: قَالَ الْأَثَمَةُ: نُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ، مِنْهُمْ: الثَّوْرِيُّ وَمَالِكٌ وَابْنُ عِيْنَةَ وَابْنُ الْمُبَارَكِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمَعُونَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يُكَيِّفُوا شَيْئاً مِنْهَا، وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزَلَةُ وَالْخَوَارِجُ فَقَالُوا: مَنْ أَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُشَبَّهٌ، فَسَمَّاهُمْ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مُعْطَلَةً.

وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي الرِّسَالَةِ النَّظَامِيَّةِ: اخْتَلَفَتْ مَسَالِكُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الظُّوَاهِرِ، فَرَأَى بَعْضُهُمْ تَأْوِيلَهَا، وَالتَّزَمَ ذَلِكَ فِي آيِ الْكِتَابِ وَمَا يَصَحُّ مِنَ السَّنَنِ، وَذَهَبَ أَثَمَةُ السَّلَفِ إِلَى الْإِنْكَفَافِ عَنِ التَّأْوِيلِ وَإِجْرَاءِ الظُّوَاهِرِ عَلَى مَوَارِدِهَا وَتَفْوِيضِ مَعَانِيهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالَّذِي نَرْتَضِيهِ رَأياً وَنَدِينُ اللَّهُ بِهِ عَقِيدَةً أَتْبَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ؛ لِلدَّلِيلِ الْقَاطِعِ عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ حُجَّةٌ، فَلَوْ كَانَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ حَتَمًا لِأَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُمْ بِهِ فَوْقَ اهْتِمَامِهِمْ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ، وَإِذَا انْصَرَمَ عَصْرُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَلَى الْإِضْرَابِ عَنِ التَّأْوِيلِ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْوَجْهَ الْمَتَّبَعُ. انْتَهَى.

وَقَدْ تَقَدَّمَ النُّقْلُ عَنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّالِثِ وَهُمْ فَقَهَاءُ الْأَمْصَارِ، كَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَمَالِكٍ وَاللَيْثِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ، وَكَذَا مَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَثَمَةِ، فَكَيْفَ لَا يُوثَقُ بِمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، وَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ بِشَهَادَةِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ «.

وَمَا جَاءَ فِي كَلَامِ الْجَوِينِيِّ مِنْ أَنَّ السَّلَفَ يُفَوِّضُونَ مَعَانِيَ الصِّفَاتِ



إلى الله عزَّ وجلَّ غير صحيح؛ فَإِنَّهُمْ يُفَوِّضُونَ في الكيف، ولا يُفَوِّضُونَ في المعنى، كما جاء عن مالك رحمه الله، فقد سئل عن كيفية الاستواء؟ فقال: « الاستواء معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».



الفائدة الثانية:

وَسَطِيَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْعَقِيدَةِ بَيْنَ فِرْقِ الضَّلَالِ

أُمَّةٌ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُتَضَادَّوْنَ، فَالْيَهُودَ جَفَّوْا فِي الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى قَتَلُوا مِنْ قَتَلُوا مِنْهُمْ، وَالنَّصَارَى غَلَّوْا فِي عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَجَعَلُوهُ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ أَمْثَلَةِ تَضَادُّهِمْ فِي الْإِعْتِقَادِ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَقَابُلِهِمْ فِي الْأَحْكَامِ أَنَّ الْيَهُودَ لَا يُؤَاكِلُونَ الْحَائِضَ وَلَا يُجَالِسُونَهَا، وَالنَّصَارَى بِضِدِّهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُحَامِعُونَهَا.

وَكَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطٌ بَيْنَ الْأُمَمِ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ بَيْنَ فِرْقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهَم:

أَوَّلًا: وَسَطٌ فِي صِفَاتِ اللَّهِ بَيْنَ الْمَعْطَلَةِ وَالْمُشَبَّهَةِ؛ فَإِنَّ الْمُشَبَّهَةَ أَثْبَتُوا، وَلَكِنَّهُمْ شَبَّهُوا وَمَثَلُوا، وَقَالُوا: لِلَّهِ يَدٌ كَأَيْدِينَا، وَوَجْهٌ كَوُجُوهِنَا، وَهَكَذَا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَأَمَّا الْمَعْطَلَةُ، فَإِنَّهُمْ تَصَوَّرُوا أَنَّ الْإِثْبَاتَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ؛ فَفَرَّوْا مِنَ الْإِثْبَاتِ إِلَى التَّعْطِيلِ؛ تَنْزِيهًا لِلَّهِ عَنْ مِثَالَةِ الْمَخْلُوقِينَ بِزَعْمِهِمْ، لَكِنْ آلَ أَمْرُهُمْ إِلَى أَنْ وَقَعُوا فِي تَشْبِيهِ أَسْوَأَ، وَهُوَ التَّشْبِيهِ بِالْمَعْدُومَاتِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ وَجُودَ ذَاتٍ بِمَجْرَدَةِ مِنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ.



وأما أهل السنّة والجماعة، فإنّهم توسّطوا بين هؤلاء وهؤلاء، فأثبتوا بلا تشبيه، ونزّهوا بلا تعطيل، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فأثبتوا لله السَّمْعَ والبَصَرَ كما أثبت الله ذلك لنفسه، فلم يُعطّلوا، ومع إثباتهم نزّهوا ولم يُشَبَّهوا، فالمشبهة عندهم الإثبات والتشبيه، والمعطّلة عندهم التعطيل والتّزْييه، وأهل السنّة عندهم الإثبات والتّزْييه، فجمعوا بين الحُسنيين: الإثبات والتّزْييه، وسَلّموا من الإساءتين: التشبيه والتعطيل، والمُعطّلة يَصِفون أهل السنّة زوراً أنّهم مُشَبَّهة؛ لأنّهم لم يتصوَّروا إثباتاً إلّا مع التشبيه، وأهل السنّة يصفون المعطّلة بأنّهم نافون للمعبود، قال ابن عبد البر في التمهيد (١٤٥/٧): «وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلّها والخوارج، فكُلّهم يُنكِرُها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أنّ من أقرّ بها مشبّه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود».

ونقله عنه الذهبي في العلو (ص: ١٣٢٦)، وعلّق عليه قائلاً: «صدق والله! فإنّ من تأوّل سائر الصفات وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أدّاه ذلك السّلب إلى تعطيل الرّبِّ، وأن يشابه المعدوم، كما نُقل عن حماد بن زيد أنّه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سَعَف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كَرَب؟ قالوا: لا، قيل: لها رُطْب وقنو؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة!».

والمعنى أنّ من نفى عن الله الصفات، فإنّ حقيقة أمره نفى المعبود؛ إذ لا يُتصوَّر وجود ذات مجرّدة من جميع الصفات.

ولهذا قال ابن القيم في المقدمة التي بين يدي قصيدته النونية: «فالمشبه

يعبد صنماً، والمعطّل يعبدُ عدماً، والموحّد يعبدُ إلهاً واحداً صمداً، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقال أيضاً: « قلبُ المعطّل متعلّق بالعدم، فهو أحقرُ الحقير، وقلبُ المشبّه عابدٌ للصنم الذي قد نُحت بالتصوير والتقدير، والموحّد قلبه متعبّد لمن ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير ».

ثانياً: وهم وسَطٌ في أفعال العباد بين الجبرية الغلاة الذين ينفون عن العبد الاختيار، ويجعلون أفعاله كحركات الأشجار، وبين القدرية النفاة الذين يجعلون العبد خالقاً لفعله، وينفون تقدير الله عليه، فأهل السنة والجماعة يُثبتون للعبد مشيئةً واختياراً، بهما يستحقُّ الثواب والعقاب، لكن لا يجعلونه مستقلاً في ذلك، بل يجعلون مشيئته وإرادته تابعةً لمشيئة الله وإرادته، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وهو سبحانه وتعالى خالقُ العباد وأفعال العباد، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثالثاً: وهم وسَطٌ في باب الوعد والوعيد بين المرجئة الذين غلبوا جانبَ الوعد وأهملوا جانبَ الوعيد، فقالوا: إنّه لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، كما لا ينفعُ مع الكفر طاعة، والخوارج والمعتزلة الذين غلبوا جانبَ الوعيد وأهملوا جانبَ الوعد، فجعلوا مرتكبَ الكبيرة خارجاً من الإيمان في الدنيا، خالداً مخلّداً في النار في الآخرة، فأهلُ السنة والجماعة أعملوا نصوصَ الوعد ونصوصَ الوعيد معاً، وجعلوا مرتكبَ الكبيرة ليس خارجاً من الإيمان في الدنيا، وفي الآخرة أمره إلى الله، إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه، وإذا عذّبه فإنّه لا يُخلّده في النار كما يُخلّد فيها الكفار، بل يُخرج منها ويُدخل الجنة.



رابعاً: وهم وَسَطٌ في باب أسماء الإيمان والدين بين المرجئة الذين فرطوا، فجعلوا العاصي مؤمناً كامل الإيمان، وبين الخوارج والمعتزلة الذين أفرطوا فأخرجوه من الإيمان، ثم حكمت الخوارج بكفره، وقالت المعتزلة: إنه في منزلة بين المنزلتين، فأهل السنة وصفوا العاصي بأنه مؤمن ناقص الإيمان، فلم يجعلوه مؤمناً كامل الإيمان، كما قالت المرجئة، ولم يجعلوه خارجاً من الإيمان كما قالت الخوارج والمعتزلة، بل قالوا: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فلم يُعطوه الإيمان المطلق، ولم يسلبوا عنه مطلق الإيمان، ويجتمع في العبد إيمانٌ ومعصيةٌ وحبٌ وبُغضٌ، فُحِبُّ على ما عنده من الإيمان، ويُعْضُ على ما عنده من الفسوق والعصيان، وهو نظير الشيب الذي يكون محبوباً إذا نُظر إلى ما بعده وهو الموت، وغير محبوب إذا نُظر إلى ما قبله وهو الشباب، كما قال الشاعر:

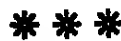
الشيبُ كرهٌ وكرهٌ أن يفارقه فاعجب لشيءٍ على البغضاء محبوب

خامساً: وهم وَسَطٌ بين الخوارج الذين كفروا علناً ومعاوية رضي الله عنهما ومن معهما وقتلوه واستحلوا أموالهم، وبين الروافض الذين غلّوا في عليٍّ وفاطمة وأولادهما رضي الله عنهم، وجفّوا في حق أكثر الصحابة، فأبغضوهم وسبّوهم، فأهل السنة يُحبّون الصحابة جميعاً ويوالونهم ويُزولونهم منازلهم ولا يقولون بعصمتهم، وقد قال الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: « ونحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ ولا نفرطُ في حبِّ أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، وبُغضُ مَنْ يُبغضهم، وبغير الخير يذكّرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضُهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ .. »



ففي قوله رحمه الله: « ونحبُّ أصحابَ رسول الله » سلامة أهل السنة من الجفاء، وفي قوله: « ولا نفرط في حبِّ أحد منهم » سلامتهم من الغلو، أي: ونحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ، فلسنا حُفَاءً، ومع حبنا لهم فلسنا غلاةً.

وقد أجمَلَ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - هذه الأمور التي أهل السنة والجماعة فيها وَسْطٌ بين فرق الضلال، في كتابه العقيدة الواسطية، فقال (ص: ١٠٧ - ١١٣): « فهم وَسْطٌ في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وَسْطٌ في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج ».



الفائدة الثالثة:

عقيدة أهل السنة والجماعة مطابقة للفطرة

روى البخاري في صحيحه (١٣٨٥) ومسلم في صحيحه (٢٦٥٨) - واللفظ للبخاري - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « كلُّ مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه ... » الحديث.

وفي صحيح مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: « ... وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ



فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» الحديث.

وهذان الحديثان يدلان على أن دين الإسلام هو دين الفطرة، وعقيدة أهل السنة والجماعة مطابقة للفطرة، ولهذا جاء في حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه في صحيح مسلم (٥٣٧) في قصة جاريته، وفيه أنه قال: «أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة».

فهذه الجارية بفطرتها أجابت بأن الله في السماء، وقد قال الله عز وجل: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أم أمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ، والمراد بالسماء العلو، أو تكون (في) بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَلَبَتْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل.

وأما الذين ابتلوا بعلم الكلام، فإنهم يقولون: إن علو الله عز وجل علو قدر وقهر، وأهل السنة والجماعة يقولون إن علو الله عز وجل علو قدر وقهر وذات، وقد جاء عن بعض المتكلمين وغيرهم عبارات تدل على أن السلامة والنجاة إنما هي في عقيدة العجائز المطابقة للفطرة، وقد نقل شارح الطحاوية عن أبي المعالي الجويني كلاماً ذم فيه علم الكلام، وقال فيه عند موته: «وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور».

وفي ترجمة الرازي - وهو من كبار المتكلمين - في لسان الميزان (٤٢٧/٤): «وكان مع تبحره في الأصول يقول: من التزم دين العجائز فهو الفائز».

وقال أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين في نصيحته لمشايخه من الأشاعرة (١٨٥/١ - مجموعة الرسائل المنيرية): « فمن تكون الراعية أعلم بالله منه لكونه لا يعرف وجهة معبوده، فإنه لا يزال مظلم القلب، لا يستتير بأنوار المعرفة والإيمان ».

وروى ابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح على شرط مسلم (٣٧٤/٥) عن جعفر بن بُرقان قال: « جاء رجلٌ إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن شيء من الأهواء، فقال: الزم دين الصبي في الكتاب والأعرابي، وأله عمًا سوى ذلك »، وعزاه إليه النووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢٢/٢).



الفائدة الرابعة:

الكلام في الصفات فرغ عن الكلام في الذات، والقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر

أهل السنة والجماعة يُثبتون كل ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله ، من غير تكيف أو تمثيل ، ومن غير تعطيل أو تأويل، ويقولون لمن أثبت الذات ونفى الصفات وهم الجهمية والمعتزلة: إنَّ الكلام في الصفات فرغ عن الكلام في الذات؛ فكما أننا ثبت لله ذاتاً لا تُشبه ذوات المخلوقات، فيجب أن نثبت كل ما ثبت في الكتاب والسنة من الصفات دون أن يكون فيها مشابهة للمخلوقات، ويقولون لمن أثبت بعض الصفات وأول بعضها، وهم الأشاعرة: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر؛ فإن ما أثبت



من الصفات على وجه يليق بالله عز وجل، يلزمك إثبات الباقي على هذا الوجه اللائق بالله، وانظر توضيح هذين الأصلين في كتاب التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٣١ - ٤٦).



الفائدة الخامسة:

السلف ليسوا مؤولة ولا مفوضة

من المعلوم أن سلف هذه الأمة من الصحابة وتابعيهم بإحسان يثبتون لله ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، على وجه يليق بكماله وجلاله، فلا يشبهون ولا يعطّلون ولا يُكَيّفون، بخلاف طريقة الخلف، التي هي التأويل لصفات الله عز وجل وصرفها إلى معان باطلة، وبخلاف طريقة المفوضة، التي زعم المؤولة أنها طريقة السلف، والتي يقولون فيها عن صفات الله عز وجل: الله أعلم بمراده بها، وقد أوضح عقيدة السلف في الصفات الإمام مالك - رحمه الله - في كلامه المشهور لما سُئل عن كيفية الاستواء، فقال: « الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».

فهم لا يفوضون في المعنى، وإنما يفوضون في الكيفية، ومن زعم أن طريقة السلف من الصحابة ومن تبعهم تفويض في معاني الصفات، فقد وقع في محاذير ثلاثة هي: جهله بمذهب السلف، وتجهيله لهم، والكذب عليهم.

أما جهله بمذهب السلف؛ فلكونه لا يعلم ما هم عليه، وهو الذي بينه الإمام مالك في كلامه المتقدم.



وأما تجهيله لهم، فذلك بنسبتهم إلى الجهل، وأنهم لا يفهمون معاني ما خوطبوا به، إذ طريقتهم على زعمه في الصفات أنهم يقولون: الله أعلم بمراده بها.

وأما الكذب عليهم، فإنما هو بنسبة هذا المذهب الباطل إليهم، وهم برآء منه.



الفائدة السادسة:

كل من المشبهة والمعطلة جمعوا بين التمثيل والتعطيل

المعطلة هم الذين نفوا صفات الله عز وجل، ولم يُثبتوها على ما يليق بالله، وشبهتهم أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه؛ لأنهم لم يتصوروا الصفات إلا وفقاً لما هو مشاهد في المخلوقين، فجرّهم ذلك التصور الخاطئ إلى التعطيل، فكان ما وقعوا فيه أسوأ مما فروا منه؛ إذ كانت النتيجة أن يكون الله تعالى وتنزهه شبيهاً بالمعدومات؛ إذ لا يُتصور وجود ذات خالية من الصفات.

ويُتضح ذلك في صفة كلام الله عز وجل، فإنهم لم يتصوروا من إثبات أن الله يتكلم بحرف وصوت إلا التشبيه بالمخلوقين؛ لأنه يلزم من ذلك أن يكون كلامه بلسان وحُجرة وشفَتين؛ لأنهم لا يعقلون ذلك إلا في المخلوقين، وذلك التصور الخاطئ مردود من وجوه:

الأول: أنه لا تلازم بين الإثبات والتشبيه؛ فإن الإثبات يكون مع التشبيه، وهو باطل لا شك فيه، ويكون مع التنزيه، كما قال الله عز



وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فأثبت السمع والبصر، ونفى مشابهة غيره له، وهذا هو اللائق بكمال الله وجلاله، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

الثاني: أن ما زعموه من أن الإثبات يقتضي التشبيه، ومن أجله عطّلوا الصفات، أدّاهم ذلك إلى التشبيه بالمعدومات، وهو أسوأ، وقد مرّ في كلام بعض أهل العلم ما يُبين ذلك، لا سيما ما عزاه الذهبي إلى حماد بن زيد من التمثيل بالنخلة، التي نفى أصحابها كل صفات النخل عنها، وقيل لهم: إذا فما في داركم نخلة! وذلك في الفائدة الثانية.

الثالث: أنه قد وُجد في المخلوقات حصول الكلام على خلاف ما هو مشاهد في المخلوقين؛ فإن ذراع الشاة التي وُضع فيها السم للرسول ﷺ كلمته وأخبرته بأنها مسمومة، كما في سنن أبي داود (٤٥١٠) و(٤٥١٢). وروى مسلم في صحيحه (٢٢٧٧) عن جابر بن سمرّة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وهذا من كلام بعض المخلوقات في الدنيا، وأمّا في الآخرة، فقد قال الله عزّ وجل: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا دِينُنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أفيقال: إن كلام الذراع والحجر والأيدي والأرجل لا يكون إلا بلسان وشفّتين؟!!

وإذا كانت هذه المخلوقات وُجد منها الكلام على وجه يُخالف ما هو مشاهدٌ في المخلوقين، فإنه يجب إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ على وجه يليق بكماله وجلاله، دون أن يكون مشابهاً لأحد من خلقه.

وهذا يتبين أن المعطلةً جمعوا إلى التعطيل التشبيه، وأما المشبهةُ فإنهم أثبتوا الصفات لله عزَّ وجلَّ، لكن جعلوه فيها مشابهاً للمخلوقات، وقد أضافوا إلى كونهم مشبهةً التعطيل، وذلك أنهم لم يُثبتوا الصفات على وجه يليق بالله عزَّ وجلَّ، وبذلك كانوا معطلةً.

الفائدة السابعة:

متكلمون يذمون علم الكلام ويظهرون الحيرة والندم

عقيدة أهل السنة والجماعة مبنية على الدليل من كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه صحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فهي صافية نقيّة، واضحة جليّة، ليس فيها غموض ولا تعقيد، بخلاف غيرهم الذين عولوا على العقول، وتأولوا النقول، وبنوا معتقداهم على علم الكلام المذموم، الذي بين أهله الذين ابتلوا به ما فيه من أضرار، وندموا على ما حصّل منهم من شغل الأوقات فيه من غير أن يظفروا بباطل، ولا أن يصلوا إلى حق، وفي نهاية أمرهم صاروا إلى الحيرة والندم، فمنهم من وُفق لتركه وأتباع طريقة السلف، وجاء عنهم عيبُ علم الكلام وذمُّه.

فأبو حامد الغزالي - رحمه الله - من المتمكنين في علم الكلام، ومع ذلك



فقد جاء عنه ذمّه، بل والمبالغة في ذمّه، ولا يُنبئك مثلُ خبير، جاء ذلك عنه في كتابه إحياء علوم الدّين، حيث بيّن ضرره وخطره، فقال (ص: ٩١) - (٩٢): «أما مضرته، فإثارة الشبهات وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك ممّا يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في الاعتقاد الحقّ، وله ضررٌ آخر في تأكيد اعتقاد المتدعة للبدعة، وتثبيتته في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتدّ حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصّب الذي يثور من الجدل».

إلى أن قال: «وأما منفعته، فقد يُظنّ أن فائدته كشفُ الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات؛ فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعلّ التخييط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدّث أو حشوي ربّما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممّن خبّر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلّمين، وجاوز ذلك إلى التعمّق في علوم آخر تناسبُ نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفكّ الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على البدور في أمور جليّة تكاد تفهم قبل التعمّق في صنعة الكلام».

وقد نقل شارح الطحاوية عنه هذا الكلام وغيره في ذمّ علم الكلام (ص: ٢٣٦)، وقال (ص: ٢٣٨): «وكلامٌ مثله في ذلك حجّة بالغة».

ثم بيّن شارح الطحاوية أن السلف كرهوا علم الكلام وذمّوه:

« لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة، وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعمر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد... »

إلى أن قال: « ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين، بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقله، ويعرف برهانه ودليله، إمّا العقلي، وإمّا الخبري السمعي، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة بجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه ردّ... »

وقال أيضاً في (ص: ٢٤٣): « قال ابن رشد الحفيد - وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم - في كتابه تهافت التهافت: (ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟)، وكذلك الآمدي - أفضل أهل زمانه - واقف في المسائل الكبار حائر، وكذلك الغزالي - رحمه الله - انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات والبخاري على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنّفه في أقسام اللذات:



نهاية إقدام العقول عقالُ وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصلُ دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علَّتْ شُرُفاتها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ

لقد تأملتُ تلك الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي
عليلاً، ولا تُروِي غليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرق طريق القرآن، اقرأ في
الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾،
واقرا في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، ثم
قال: (وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي، عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي).

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، إنَّه
لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طُفَّتْ المعاهد كلها وسيرتُ طريقي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر على ذقنٍ أو قارِعاً سنَّ نادم
وكذلك قال أبو المعالي الجويني رحمه الله: (يا أصحابنا! لا تشتغلوا
بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلامَ يبلغُ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به)، وقال
عند موته: (لقد خضتُ البحرَ الخضمَّ، وخلَّيتُ أهلَ الإسلامِ وعلومهم،
ودخلتُ في الذي تهووني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربِّي برحمته، فالويل
لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمِّي، أو قال: على عقيدة
عجائز نيسابور)، وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي - وكان من أجل
تلامذة فخر الدين الرازي - لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً فقال:

(ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت مُنْشَرِح الصَّدْر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكنِّي - والله! - ما أدري ما أعتقد، - والله! - ما أدري ما أعتقد! - والله! - ما أدري ما أعتقد!) وبكى حتى أحضَل لحيته.

ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فِيكَ يَا أُغْلُوطة الْفَكْرِ حَارَ أَمْرِي وَانْقَضَى عَمْرِي
سَافَرْتُ فِيكَ الْعَقُولُ فَمَا رَجَحْتُ إِلَّا أَدَى السَّفَرِ
فَلَحَى اللَّهُ الْأَلَى زَعَمُوا أَنَّكَ الْمَعْرُوفَ بِالنَّظَرِ
كَذَبُوا إِنَّ الَّذِي ذَكَرُوا خَارَجَ عَنِ قُوَّةِ الْبُشْرِ

وقال الخونجي عند موته: (ما عرفتُ ممَّا حَصَلَتْهُ شَيْئاً سِوَى أَنِّ الْمُمْكِنُ يَفْتَقِرُ إِلَى الْمَرْجَحِ، ثُمَّ قَالَ: الْاِفْتِقَارُ وَصْفٌ سَلْبِيٌّ، أَمُوتَ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئاً).

وقال آخر: (أَضْطَجَعَ عَلَى فِرَاشِي، وَأَضْعَ الْمَلْحَفَةَ عَلَى وَجْهِي، وَأَقَابِلُ بَيْنَ حُجَّجِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَلَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ) «.

إِلَى أَنْ قَالَ شَارِحُ الطَّحَاوِيَّةِ: «وَيَجِدُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَجَائِزِ، فَيُقَرُّ بِمَا أَقْرَأُوا بِهِ، وَيُعْرَضُ عَنْ تِلْكَ الدَّقَائِقِ الْمُخَالَفَةِ لِذَلِكَ، الَّتِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ فَسَادُهَا، أَوْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صَحَّتُهَا، فَيَكُونُونَ فِي نَهَايَتِهِمْ - إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ - بِمَنْزِلَةِ أَتْبَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَعْرَابِ».

وكان أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين في حيرة واضطراب في صفات الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ صَارَ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ، وَأَلَّفَ رِسَالَةَ تُصَحِّحُ لِبَعْضِ مَشَايِخِهِ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ، وَهِيَ مَطْبُوعَةٌ ضَمِنَ مَجْمُوعَةَ الرِّسَائِلِ الْمُنِيرَةِ (١٧٤/١ - ١٨٧).



الفائدة الثامنة:

هل صحيح أن أكثر المسلمين في هذا العصر أشاعرة؟

الأشاعرة هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وهو علي بن إسماعيل المتوفى سنة (٣٣٠هـ) رحمه الله، وقد مرَّ في العقيدة بثلاثة أطوار: كان على مذهب المعتزلة، ثم في طور بين الاعتزال والسُّنة، يثبت بعض الصفات ويؤوِّل أكثرها، ثم انتهى أمره إلى اعتقاد ما كان عليه سلف الأمة؛ إذ أبان عن ذلك في كتابه الإبانة، الذي هو من آخر كتبه أو آخرها، فبيَّن أنه في الاعتقاد على ما كان عليه إمام أهل السُّنة، الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - وغيره من أهل السُّنة، وهو إثبات كلِّ ما أثبتته الله لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، على ما يليق بالله، من غير تكليف أو تمثيل، ومن غير تحريف أو تأويل، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمْ يَسْ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والأشاعرة باقون على مذهبه الذي كان عليه قبل الانتقال إلى مذهب أهل السُّنة والجماعة، وقد اشتهر عند بعض الناس مقولة أن الأشاعرة في هذا العصر يُمثّلون ٩٥٪ من المسلمين، وهذه المقولة غير صحيحة من وجوه:

الأول: أن إثبات مثل هذه النسبة إنَّما يكون بإحصاء دقيق يؤدِّي إلى ذلك، وهو غير حاصل، وهي مجرد دعوى.

الثاني: أنه لو سلَّم أنَّهم بهذه النسبة؛ فإنَّ الكثرة لا تدلُّ على السلامة وصحة العقيدة، بل السلامة وصحة المعتقد إنَّما تحصل باتباع ما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن سار على نهجهم، وليست باتباع

معتقد توفي صاحبه في القرن الرابع، وقد رجع عنه، وليس من المعقول أن يُحجب حقُّ عن الصحابة والتابعين وأتباعهم، ثم يكون في أتباع اعتقاد حصلت ولادته بعد أزمانهم.

الثالث: أن مذهب الأشاعرة إنما يعتقده الذين تعلّموه في مؤسسات علمية، أو تعلّموه من مشايخ كانوا على مذهب الأشاعرة، وأمّا العوام - وهم الأكثرية - فلا يعرفون شيئاً عن مذهب الأشعرية، وإنما هم على الفطرة التي دلّ عليها اعتقاد الجارية في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، وقد تقدّم.

والعقيدة المطابقة للفطرة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد مرّ إيضاح ذلك قريباً في الفائدة الثالثة.



الفائدة التاسعة:

عقيدة الأئمة الأربعة ومن تفقه بمذاهبهم

من أئمة أهل السنة الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله، وعقيدتهم هي عقيدة السلف من الصحابة ومن سار على نهجهم.

وأما المشتغلون بالفقه بعدهم، فمنهم من يستفيد من علمهم في الفروع، ويعوّل على ما دلّ عليه الدليل؛ أخذاً بوصايا الأئمة أنفسهم، فإن كل واحد منهم جاء عنه الأمرُ باتباع الدليل، وترك قوله إذا كان الدليل على خلافه، وهؤلاء موافقون لهم في العقيدة.

ومنهم مَنْ يُقْلِدُهُمْ في مسائل الفروع، دون سعي إلى معرفة الرَّاجِحِ بالدَّلِيلِ، وهؤلاء منهم مَنْ يُوافِقُهُمْ في العقيدة، وكثيرون منهم يَتَّبِعُونَ مذهب الأشاعرة.

ومن أمثلة مَنْ تفقّه في المذهب الحنفي وهو على عقيدة السلف الإمام أبو جعفر الطحاوي صاحب عقيدة أهل السنّة والجماعة، وشارح هذه العقيدة علي بن أبي العز الحنفي، ومنهم في المذهب الشافعي عبد الرحمن ابن إسماعيل الصابوني، مؤلّف كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث، والذهبي صاحب كتاب العلو، وابن كثير صاحب التفسير، ومنهم في المذهب المالكي ابن أبي زيد القيرواني، وأبو عمر الطلمنكي، وأبو عمر بن عبد البر، ومنهم في المذهب الحنبلي الإمام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، والإمام محمد بن عبد الوهاب.

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة كما في مختصره لابن الموصلين اثنين وأربعين وجهاً في إبطال قول مَنْ فسّر الاستواء على العرش بالاستيلاء عليه، وذكر أنّ كثيراً من المالكية على منهج السلف في العقيدة، فقال في (١٣٢/٢ - ١٣٦):

« الوجه الثاني عشر: أنّ الإجماع منعقد على أنّ الله سبحانه استوى على عرشه حقيقة لا مجازاً، قال الإمام أبو عمر الطلمنكي - أحد أئمّة المالكية وهو شيخ أبي عمر بن عبد البر - في كتابه الكبير الذي سمّاه الوصول إلى معرفة الأصول، فذكر فيه من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم وأقوال مالك وأئمّة أصحابه، ما إذا وقف عليه الواقف علم حقيقة مذهب السلف، وقال في هذا الكتاب: أجمع أهل السنّة على أنّ الله تعالى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز.

الوجه الثالث عشر: قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد في شرح حديث النزول: « وفيه دليل على أن الله تعالى في السماء على العرش من فوق سبع سموات، كما قالت الجماعة وقرّر ذلك، إلى أن قال: وأهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يُكَيِّفُون شيئاً من ذلك، ولا يَحُدُّون فيه صفة مخصوصة، وأمّا أهل البدع الجهمية والمعتزلة والخوارج، فكلُّهم يُنكِرُها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن مَنْ أقرَّ بها مشبّه، وهم عند مَنْ أقرَّ بها نافون للمعبود.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره المشهور في قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: هذه المسألة للفقهاء فيها كلام، ثم ذكر أقوال المتكلمين، ثم قال: وقد كان السلف الأول لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق به في كتابه، وأخبرت به رسله، ولم يُنكر أحدٌ من السلف الصالح أنّه استوى على عرشه حقيقة، وإنّما جهلوا كيفية الاستواء، كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

الوجه الرابع عشر: أن الجهمية لمّا قالوا إنّ الاستواء مجازٌ صرّح أهل السنة بأنّه مستوٍ بذاته على عرشه، وأكثر مَنْ صرّح بذلك أئمّة المالكية، فصرّح به الإمام أبو محمد بن أبي زيد في ثلاثة مواضع من كتبه، أشهرها الرسالة، وفي كتاب جامع النوادر، وفي كتاب الآداب، فمن أراد الوقوف على ذلك فهذه كتبه، وصرّح بذلك القاضي عبد الوهاب، وقال: إنّهُ استوى بالذات على العرش، وصرّح به السيوطي أبو بكر الباقلاني وكان مالكيّاً، حكاه عنه القاضي عبد الوهاب نصّاً، وصرّح به أبو عبد الله



القرطبي في كتاب شرح أسماء الله الحسنى، فقال: ذكر أبو بكر الحضرمي من قول الطبري يعني محمد بن جرير وأبي محمد بن أبي زيد وجماعة من شيوخ الفقه والحديث، وهو ظاهر كتاب القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر وأبي الحسن الأشعري، وحكاها القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر نصًّا، وهو أنه سبحانه مُستَوٍ على عرشه بذاته، وأطلقوا في بعض الأماكن فوق خلقه.

قال: وهذا قول القاضي أبي بكر في تمهيد الأوائل له، وهو قول أبي عمر بن عبد البر، والطللمنكي وغيرهما من الأندلسيين، وقول الخطابي في شعار الدين.

وقال أبو بكر محمد بن موهب المالكي في شرح رسالة ابن أبي زيد: قوله إنه فوق عرشه المجيد بذاته، معنى (فوق) و(على) عند جميع العرب واحد، وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تصديق ذلك، ثم ذكر النصوص من الكتاب والسنة واحتج بحديث الجارية وقول النبي ﷺ لها: (أين الله؟) وقولها: (في السماء)، وحكمه بإيمانها، وذكر حديث الإسراء، ثم قال: وهذا قول مالك فيما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين، فيما فهموا من الصحابة فيما فهموا عن نبيهم ﷺ: أن الله في السماء بمعنى فوقها وعليها، قال الشيخ أبو محمد: إنه بذاته فوق عرشه المجيد، فتبين أن علوه على عرشه وفوقه إنما هو بذاته، إلا أنه بائن من جميع خلقه بلا كيف، وهو في كل مكان من الأمكنة المخلوقة بعلمه لا بذاته، لا تحويه الأماكن؛ لأنه أعظم منها، إلى أن قال: وقوله: على العرش استوى، إنما معناه عند أهل السنة على غير معنى الاستيلاء والقهر والغلبة والملك، الذي ظنت المعتزلة ومن قال بقولهم أنه معنى الاستواء، وبعضهم يقول إنه على

المجاز لا على الحقيقة، قال: وَيُبَيِّنُ سَوْءَ تَأْوِيلِهِمْ فِي اسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ عَلَى غَيْرِ مَا تَأَوَّلُوهُ مِنَ الْاِسْتِيلَاءِ وَغَيْرِهِ، مَا قَدْ عَلَّمَهُ أَهْلُ الْمَعْقُولِ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُسْتَوِيًّا عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ بَعْدَ اخْتِرَاعِهِ لَهَا، وَكَانَ الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ فِي ذَلِكَ سَوَاءً، فَلَا مَعْنَى لِتَأْوِيلِهِمْ بِإِفْرَادِ الْعَرْشِ بِالْاِسْتَوَاءِ الَّذِي هُوَ فِي تَأْوِيلِهِمُ الْفَاسِدُ اِسْتِيلَاءٌ وَمَلَكٌ وَقَهْرٌ وَغَلْبَةٌ، قَالَ: وَذَلِكَ أَيْضًا يَبَيِّنُ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، فَلَمَّا رَأَى الْمُصَنِّفُونَ إِفْرَادَ ذِكْرِهِ بِالْاِسْتَوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَأَرْضِهِ وَتَخْصِيصِهِ بِصِفَةِ الْاِسْتَوَاءِ عَلَّمُوا أَنَّ الْاِسْتَوَاءَ غَيْرُ الْاِسْتِيلَاءِ، فَأَقْرَبُوا بِوَصْفِهِ بِالْاِسْتَوَاءِ عَلَى عَرْشِهِ وَأَنَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ؛ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ فِي قِيلِهِ، وَوَقَفُوا عَنْ تَكْيِيفِ ذَلِكَ وَتَمْثِيلِهِ؛ إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، هَذَا لَفْظُهُ فِي شَرْحِهِ.

الوجه الخامس عشر: أَنَّ الْأَشْعَرِيَّ حَكِيَ إِجْمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى بُطْلَانِ تَفْسِيرِ الْاِسْتَوَاءِ بِالْاِسْتِيلَاءِ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ لَفْظَهُ بَعَيْنَهُ الَّذِي حَكَاهُ عَنْهُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرٍ فِي كِتَابِ تَبْيِينِ كَذِبِ الْمُفْتَرِيِّ، وَحَكَاهُ قَبْلَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُورْكَ وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كِتَابِهِ، قَالَ فِي كِتَابِ الْإِبَانَةِ وَهِيَ آخِرُ كِتَابِهِ قَالَ:

(بَابُ ذِكْرِ الْاِسْتَوَاءِ) إِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي الْاِسْتَوَاءِ، قِيلَ: نَقُولُ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، وَسَاقَ الْأَدِلَّةَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: وَقَالَ قَائِلُونَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْحَرُورِيَّةِ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أَنَّهُ اسْتَوَى وَمَلَكَ وَقَهَرَ، وَجَحَدُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ، وَذَهَبُوا فِي الْاِسْتَوَاءِ إِلَى الْقُدْرَةِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قَالُوا كَانَ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْعَرْشِ وَالْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ، فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مُسْتَوِيًّا عَلَى



العرش بمعنى الاستيلاء والقدرة لكان مستوياً على الأرض والحشوش والأثتان والأقذار؛ لأنه قادرٌ على الأشياء كلها ولم نجد أحداً من المسلمين يقول إن الله مستوٍ على الحشوش والأخيلية، فلا يجوز أن يكون معنى الاستواء على العرش على معنى هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون سائر الأشياء، وهكذا قال في كتابه الموجز وغيره من كتبه.»



الفائدة العاشرة:

التأليف في العقيدة على منهج السلف:

المؤلفات في العقيدة على منهج السلف كثيرة جداً، منها مؤلفات مستقلة، ومنها مؤلفات تشتمل على العقائد وغيرها. أمّا الكتب المشتملة على العقائد وغيرها، فمثل صحيح البخاري، فإنه يشتمل على سبعة وتسعين كتاباً، أولها كتاب الإيمان، وآخرها كتاب التوحيد، وبينهما كتب أخرى، مثل كتاب القدر، وكتاب الأنبياء، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومثل صحيح مسلم ففيه كتاب الإيمان، وهو أول الكتب، وكتاب القدر وغير ذلك، وكذا كتب السنن الأربعة وغيرها، تشتمل على كتب في العقيدة، بعضها باسم الإيمان، وبعضها باسم السنة مثل كتاب السنة في سنن أبي داود.

وأما المؤلفات المستقلة في العقيدة، فنقسم إلى قسمين:

مؤلفات على طريقة المتقدمين، ومؤلفات على طريقة المتأخرين.

أما المؤلفات على طريقة المتقدمين، فهي تُعنى غالباً بإيراد الأحاديث والآثار مسندة، وفيها أسماء يدخل تحتها عدّة مسمّيات، كالإيمان، والسنة، والردّ على الجهمية، فمن المؤلفات باسم الإيمان: الإيمان لأبي بكر ابن أبي شيبة، ولأبي عبيد القاسم بن سلام، ولابن أبي عمر العدني، ولابن منده، وغيرها. ومن المؤلفات باسم السنة: السنة لمحمد بن نصر المروزي، ولابن أبي عاصم، ولعبد الله بن الإمام أحمد، وللألكائي، وللخلال، ولابن شاهين، وأصول السنة لابن أبي زمنين، وشرح السنة للمزني وللبرهاري، والمختار في أصول السنة لابن البناء.

ومن المؤلفات باسم الردّ على الجهمية: الردّ على الجهمية للإمام أحمد، ولعثمان بن سعيد الدارمي، ولابن منده.

وهناك مؤلفات أخرى، كالتوحيد لابن خزيمة، والتوحيد لابن منده، والشريعة للآجري، والحجة في بيان المحجة لإسماعيل الأصبهاني، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني، وخلق أفعال العباد للبخاري، والعرش لابن أبي شيبة، والقدر للفريابي، والعظمة لأبي الشيخ، والرؤية والنزول والصفات كلّها للدارقطني، وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، والبعث والنشور لأبي داود، وصفة الجنة والإمامة والرد على الرافضة كلاهما لأبي نعيم، وذم الكلام وأهله للهروي، والإبانة الكبرى لابن بطة.

وللمتقدمين والمتأخرين مؤلفات تشتمل على مسائل العقيدة باختصار من دون أسانيد، ككتاب السنة لأحمد، وعقيدة أهل السنة والجماعة للطحاوي، ومقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وصريح السنة لابن جرير الطبري، واعتقاد أهل السنة لأبي بكر الإسماعيلي، والإبانة الصغرى لابن بطة، والإبانة لأبي الحسن الأشعري، وعقيدة الحافظ عبد الغني، ولمعة الاعتقاد والعلو، كلاهما لابن قدامة، والعقيدة الواسطية والتدمرية والحموية كلّها لابن تيمية.



وأما المؤلفات على طريقة المتأخرين، فهي تُعنى بإيراد الآيات والأحاديث والآثار والرد على المخالفين في كل موضوع على حدة. وعند ذكر الأحاديث والآثار يعزونها إلى كتب المؤلفين المتقدمين المسندة، فيقال: رواه البخاري ومسلم وأبو داود، دون أن يذكرُوا شيئاً من الأسانيد، مثل الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ليحيى العمراني، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ومنهاج السنة ودرء تعارض العقل والنقل والإيمان كلها لابن تيمية، والعلو للذهبي، واجتماع الجيوش الإسلامية وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح والصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة كلها لابن القيم، ومختصر الصواعق المرسلة لمحمد بن الموصلي، وكتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشرحه تيسير العزيز الحميد لحفيده الشيخ سليمان بن عبد الله، وشرحه فتح الحميد لحفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن.

وما ذكرته من الكتب تمثيل وليس استقصاء.

وأما غمز بعض المبتدعة بعض كتب السنة لاشتمالها على أحاديث ضعيفة أو موضوعة فمردود؛ وذلك أن عادة المحدّثين إذا أسندوا الأحاديث فقد أحالوا المشتغلين بالعلم إلى أسانيدنا للنظر فيها، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (١٥/٤) أن عادة المحدّثين أنّهم يروون جميع ما في الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يحتاج من ذلك إلا ببعضه، وذكر أيضاً أن المحدّث يروي ما سمعه كما سمعه والدرك على غيره لا عليه، وأهل العلم ينظرون في ذلك، وفي رجاله وإسناده، وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٧٥/٣): «أكثر المحدّثين في الأعصار الماضية من سنة مائتين وهلمّ جرّاً إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنّهم برئوا من عهده، والله أعلم».



نصُّ مقدِّمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني

من طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة

من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمان بالقلب والتَّطَقُّ باللسان أن الله إلهٌ واحدٌ لا إله غيره،
ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا وَلَدٌ له، ولا والدٌ له، ولا صاحبة له، ولا
شريك له.

ليس لأوَّلِيَّتِهِ ابتداءً، ولا لآخِرِيَّتِهِ انقضاءً، لا يُلْغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الواصفون،
ولا يُحِيطُ بأمرِهِ المتفكِّرون، يَعْتَبِرُ المتفكِّرونَ بآياته، ولا يَتَفَكَّرُونَ في
مَاهِيَةِ^(١) ذاته، ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ من عِلْمِهِ إلَّا بما شاءَ وَسِعَ كَرْسِيُّهُ
السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، ولا يُؤَوِّدُهُ حِفْظُهُمَا وهو العليُّ العَظِيمُ.

العالمُ^(٢) الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البَصِيرُ، العليُّ الكَبِيرُ، وأَنَّهُ فوقَ
عَرْشِهِ المجيد بذاته، وهو في كُلِّ مَكَانٍ بعلمه.

(١) في نسخة: (مائية).

(٢) في نسخة: (العليم).

خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا
رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

على العرشِ استوى، وعلى الملكِ احتوى، وله الأسماءُ الحُسنى
والصفاتُ العُلَى، لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ
مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحَدَّثَةً.

كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ، لَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى
لِلْحَبْلِ فَصَارَ ذِكًّا مِنْ جَلَالِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ،
وَلَا صِفَةُ لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدُ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، حُلُوهُ وَمُرُّهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدَرُهُ اللَّهُ رَبُّنَا،
وَمُقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ.

عَلِمَ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ
وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ﴾.

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيَخْذُلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَيُوقِفُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلُّ
مَيْسَرٍ بِتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ، مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ.

تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، أَوْ يَكُونُ لِأَحَدٍ عَنْهُ غَنَى خَالِقًا
لِكُلِّ شَيْءٍ، أَلَا هُوَ ^(١) رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدَّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ
وَأَجَالِهِمْ.

الْبَاعِثُ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ^(١)، فَجَعَلَهُ آخِرَ الْمُرْسَلِينَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ.

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمِ بِالنُّبُوَّةِ عَنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكِبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وَمَنْ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتُهُ إِلَى أَرْضِهِ، بِمَا^(٢) سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.

وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَالْحَدَّ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُورِينَ عَنْ رُؤْيَيْتِهِ.

وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحْيِيُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَعَقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتُوضَعُ الْمَوَازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ،

(١) فِي نَسَخَةِ: (مُحَمَّدٌ ﷺ).

(٢) فِي نَسَخَةِ: (لَمَّا).



فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَيُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ،
فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصْلُونَ سَعِيرًا.

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي
سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ.
وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَرْدُهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ،
وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ
بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا^(١)، فَيَكُونُ فِيهَا التَّقْصُ وَبِهَا الزِّيَادَةُ، وَلَا
يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ^(٢)، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ
وَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ.

وَأَنَّهُ لَا يَكْفُرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ.
وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ
نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ، وَأَرْوَاحُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ^(٣) مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.
وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، هُ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ

وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ
عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ.

(١) في نسخة: (ينقص الأعمال).

(٢) في نسخة: (وأنه لا قول ولا عمل إلا بنية).

(٣) في نسخة: (الشقاء).



وَأَنْ خَيْرَ الْقُرُونِ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلَوْنَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلَوْنَهُمْ.

وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ ^(١) الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ؛ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَنْ لَا يُذَكَّرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا شَحَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ.

وَالطَّاعَةُ لِأَمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ ^(٢) وَعُلَمَائِهِمْ، وَاتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمَرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ، وَتَرْكُ مَا أَحَدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ [نَبِيِّهِ] ^(٣) وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.



(١) في نسخة: (أصحابه).

(٢) في نسخة: (أمرهم).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من نسخة.



نظم مقدمة الرسالة

للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي المتوفى سنة (١٢٨٥هـ)

نقلًا من ديوانه (ص: ١٧).

الحمدُ لله حمدًا ليس مُنْحصَرًا	على أياديه ما يخفى وما ظهرًا
ثم الصلاة وتسليمُ المهيمنِ ما	هبَّ الصَّبَا فأدرَّ العارضَ المَطَرًا
على الذي شاد بنيانَ الهدى فسَمَا	وساد كلَّ الورَى فخرًا وما افتخرًا
نبينا أحمد الهادي وعَثرته	وصحبه كلٌّ مَنْ آوى وَمَنْ نصرًا
وبعدُ فالعلمُ لم يظفر به أحدٌ	إلاَّ سَمَا وبأسبابِ العُلَى ظفرًا
لا سيما أصل علم الدِّين إن به	سعادة العبد والمنجى إذا حُشِرًا

باب ما تعتقده القلوب وتنطق به الألسن من واجب أمور

الديانات

وأوَّلُ الفرض إيمانُ الفؤاد كذا	نُطقُ اللسانِ بما في الذِّكر قد سَطُرًا
أنَّ الإلهَ إلهَ واحدٍ صمد	فلا إلهَ سِوى مَنْ للأنامِ برًا
ربُّ السموات والأرضين ليس لنا	ربُّ سِواه تعالى مَنْ لنا فطرًا

وأنه مُوجدُ الأشياء أجمعها
وهو المتَّزَّه عن ولد وصاحبة
لا يبلغن كُنَّةَ وصف الله واصفه
وأنه أوَّلُ باق فليس له
حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلام له
وأنَّ كرسِيَّه والعرشَ قد وسَّعا
ولم يزل فوق ذاك العرش خالقنا
إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد ورَدَتْ
فالله حق على الملوك احتوى وعلى الـ
والله بالعلم في كلِّ الأماكن لا
وأنَّ أوصافه ليست بمُحدَّثة
وأنَّ تنزيله القرآنَ أجمعه
وَحَيٌّ تكلِّم مولانا القلبيُّ به
يُتلى ويحمل حفظاً في الصدور كما
وأنَّ موسى كليمُ الله كلمه
فالله أسمعُه من غير واسطة
حتى إذا هام سُكراً في محبَّته
إليك. قال له الرحمن موعظة
فانظر إلى الطور إن يثبت مكانه
حتى إذا ما تجلَّسى ذو الجلال له

بلا شريك ولا عَوْن ولا وُزَرَ
ووالد وعن الأشباه والنظائر
ولا يحيط به علماً من افتكراً
بدء ولا منتهى سبحان من قدراً
فردُّ سميعٍ بصيرٍ ما أراد جرى
كلُّ السموات والأرضين إذ كبراً
بذاته فاسأل الوحيين والفِطْرَ
عن الرُّسول فتابع من روى وقرأ
عرش استوى وعن التكيف كُنْ حَدِراً
يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويرى
كذاك أسماؤه الحسنَى لمن ذكراً
كلامه غيرُ خلق أعجز البشرَ
ولم يزل من صفات الله مُعْتَبِراً
بالخطِّ يُثبِّتُه في الصُّحف من زَبَراً
إلهه فوق ذاك الطور إذ حضراً
من وصفه كلمات تحتوي عبَراً
قال الكليم: إلهي أسأل النظراً
أنتى تراني ونوري يُدهشُ البَصَرَ
إذا رأى بعضُ أنواري فسوف ترى
تصدَّع الطورُ من خَوْف وما اضطَبَّراً



فصل في الإيمان بالقدر خيره وشره

وبالقضاء وبالأقدار أجمعها
فكلُّ شيء قضاءه الله في أرل
وكلُّ ما كان من همٍّ ومن فرح
فإنه من قضاء الله قدره
والله خالق أفعال العباد وما
ففي يديه مقادير الأمور وعن
فمن هدى فبمحض الفضل وفقه
فليس في ملكه شيء يكون سوى

إيماننا واجب شرعاً كما ذكرنا
طراً وفي لوحه المحفوظ قد سطرنا
ومن ضلال ومن شكران من شكرنا
فلا تكن أنت ممن ينكر القدرنا
يجري عليهم فعن أمر الإله جرنا
قضائه كلُّ شيء في الورى صدرنا
ومن أضلُّ بعدل منه قد كفرنا
ما شاء الله نفعاً كان أو ضرراً

فصل في عذاب القبر وفتنته

ولم تمت قط من نفس وما قتلت
وكلُّ روح رسول الموت يقبضها
وكلُّ من مات مسئول ومفتن
وأن أرواح أصحاب السعادة في
لكنما الشهدا أحياء وأنفسهم
وأنها في جنان الخلد سارحة
وأن أرواح من يشقى معذبة

من قبل إكمالها الرزق الذي قدرنا
بإذن مولاه إذ تستكمل العُمْرنا
من حين يوضع مقبوراً ليختبرنا
جنات عدن كطير يعلق الشجرنا
في جوف طير حسان تُعجب النظرا
من كل ما تشتهي تجني بها الثمرا
حتى تكون مع الجثمان في سقرا

فصل في البعث بعد الموت والجزاء

في الصُّورِ حقٌّ فيحيى كلُّ مَنْ قُبِرَا
سبحان من أنشأ الأرواحَ والصُّورَا
وكلُّ مَيِّتٍ من الأموات قد نُشِرَا
يقتصرُ مظلومُهُم مِمَّنْ له قَهْرَا
والشمسُ دانيةٌ والرَّشْحُ قد كَثُرَا
لهم صفوفٌ أحاطت بالورى زَمَرَا
خزائنها فأهالت كلُّ مَنْ نَظَرَا
على العُصاة وترمي نعوهم شرَّرا
أعمالهم كلُّ شيءٍ جلٌّ أو صَغُرَا
فهو السَّعيد الذي بالفوز قد ظَفِرَا
دعا ثُبُورًا وللنيران قد حُشِرَا
بالخير فاز وإن خَفَّت فقد خَسِرَا
يكون في الحسنات الضَّعْفُ قد وفِرَا
رَبِّي لِمَنْ شا وليس الشُّركُ مُغْفِرَا
مُحَلَّدٌ ليس يخشى الموتَ والكِبَرَا
يخشى الإلَهَ وللنَّعماء قد شُكِرَا
كما يرى الناسُ شمسَ الظَّهرِ والقَمَرَا
أَعَدَّهَا اللهُ مولانا لِمَنْ كَفَرَا

وَأَنَّ نَفْخَةَ إِسْرَافِيلَ ثَانِيَةً
كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ رَبِّي يُعِيدُهُمْ
حَتَّى إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارِخُهُ
قَالَ الْإِلَهِ: قِفُوهُمْ لِلسَّوَالِ لَكِي
فِيوَقِفُونَ أَلُوفًا مِنْ سَنِينِهِمْ
وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْأَمَلَاكُ قَاطِبَةً
وَجِيءَ يَوْمُئِذٍ بِالنَّارِ تَسْحِبُهَا
لَهَا زَفِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ تَغِيظِهَا
وَيُرْسِلُ اللَّهُ صُحُفَ الْخَلْقِ حَاوِيَةً
فَمَنْ تَلَقَّته بِالْيَمِينِ صَحِيفَتُهُ
وَمَنْ يَكُنْ بِالْيَدِ الْيُسْرَى تَنَاولُهَا
ووزنُ أَعْمَالِهِمْ حَقٌّ فَإِنْ ثَقُلَتْ
وَأَنَّ بِالمِثْلِ تُعْزَى السَّيِّئَاتُ كَمَا
وَكُلُّ ذَنْبٍ سِوَى الْإِشْرَاقِ يَغْفِرُهُ
وَجَنَّةُ الْخُلْدِ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا
أَعَدَّهَا اللهُ دَارًا لِلْخُلُودِ لِمَنْ
وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِهِ الْإِلَهِ بِهَا
كَذَلِكَ النَّارُ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا



ولا يخلد فيها مَنْ يُوَحِّدُهُ ولو بسفك دم المعصوم قد فَجَّرَا
وكم يُنْجِي إِلَهِي بِالشِّفَاعَةِ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَنْ عَاصَ بِهَا سَجَرَا

فصل في الإيمان بالحوض

وَأَنْ لِلْمُصْطَفَى حَوْضًا مَسَافَتُهُ
أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ الصَّافِي مَذَاقَتُهُ
وَلَمْ يَرِدْهُ سِوَى أَتْبَاعِ سُنَّتِهِ
وَكَمْ يُنْحَى وَيُنْفَى كُلُّ مُبْتَدِعٍ
وَأَنْ جَسْرًا عَلَى النَّيِّرَانِ يَعْبُرُهُ
وَأَنْ إِيْمَانَنَا شَرْعًا حَقِيقَتُهُ
وَأَنْ مَعْصِيَةَ الرَّحْمَنِ تُنْقِصُهُ
وَأَنْ طَاعَةَ أُولَى الْأَمْرِ وَاجِبَةٌ
إِلَّا إِذَا أَمَرُوا يَوْمًا بِمَعْصِيَةٍ
وَأَنْ أَفْضَلَ قَرْنَ لِلَّذِينَ رَأَوْا
أَعْيَى الصَّحَابَةِ رُهْبَانٌ بَلِيلُهُمْ
وَخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ مِنْهُمْ خِلَافَتَهُ
وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ لَهُمْ وَكَذَا
وَوَاجِبٌ ذِكْرُ كُلِّ مَنْ صَحَابَتُهُ
فَلَا تَخْضُ فِي حُرُوبٍ بَيْنَهُمْ وَقَعَتْ
وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي الدِّينِ مَفْتَرَضٌ

مَا بَيْنَ صَنَعَا وَبُصْرَى هَكَذَا ذَكَرَا
وَأَنْ كِبَارَانَهُ مِثْلُ النُّجُومِ تُرَى
سِيَمَاهِمُ: أَنْ يُرَى التَّحْجِيلُ وَالْعُرْرَا
عَنْ وَرْدِهِ وَرَجَالٌ أَحْدَثُوا الْغَيْرَا
بِسُرْعَةٍ مَنْ لِمَنْهَاجِ الْهُدَى عَبْرَا
قَصْدٌ وَقَوْلٌ وَفَعْلٌ لِلَّذِي أَمْرَا
كَمَا يَزِيدُ بَطَاعَاتِ الَّذِي شَكَرَا
مِنْ الْهُدَاةِ نَجُومِ الْعِلْمِ وَالْأَمْرَا
مِنْ الْمَعَاصِي فَيُلْغَى أَمْرُهُمْ هَذَرَا
نَبِيَّنَا وَبِهِمْ دِينُ الْهُدَى نُصْرَا
وَفِي النَّهَارِ لَدَى الْهَيْجَا لُيُوثُ شَرَى
وَالسَّبْقُ فِي الْفَضْلِ لِلصَّدِّيقِ مَعَ عُمَرَا
أَتْبَاعُ أَتْبَاعِهِمْ مِمَّنْ قَفَى الْأَثَرَا
بِالْخَيْرِ وَالْكَفِّ عَمَّا بَيْنَهُمْ شَحَرَا
عَنْ اجْتِهَادٍ وَكُنْ إِنْ خُضْتَ مُعْتَذِرَا
فَاقْتَدِ بِهِمْ وَاتَّبِعِ الْآثَارَ وَالسُّورَا

وترك ما أحدثه المحدثون فكم
 إن الهدى ما هدى الهادي إليه وما
 فلا مرء وما في الدين من جدل
 فهناك في مذهب الأسلاف قافية
 يحوي مهمات باب في العقيدة من
 والحمد لله مولانا ونسأله
 ثم الصلاة على من عم بعثته
 ودينه نسخ الأديان أجمعها
 محمد خير كل العالمين به
 وليس من بعده يوحى إلى أحد
 والآل والصحب ما ناحت على فنن

ضلالة تبعت والدين قد هجرًا
 به الكتاب كتاب الله قد أمرًا
 وهل يجادل إلا كل من كفرًا
 نظمًا بديعًا وجيز اللفظ مختصرًا
 رسالة ابن أبي زيد الذي اشتهرًا
 غفران ما قل من ذنب وما كثرا
 فأندر الثقلين الجن والشرا
 وليس ينسخ ما دام الصفا وحرًا
 ختم النبيين والرسل الكرام جرًا
 ومن أجاز فحل قتل هدرًا
 ورقًا وما غردت قمرية سحرًا



أَوَّلُ الشَّرْحِ

١ - قوله: « باب ما تنطق به الألسنة وتعتقدُه الأفتدة من واجب أمور الديانات، من ذلك الإيمان بالقلب والتَّطَقُّ باللسان أن الله إلهٌ واحدٌ لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا وَلَدٌ له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له ».

عقد ابنُ زيد القيرواني - رحمه الله - هذا الباب في مقدِّمة رسالته بالفقه؛ لأنَّه لم يجعل التأليف في العقيدة مستقلاً، بل أتى به تحت هذا الباب في مقدِّمة رسالته، فصارت رسالته في الفقه، جمعت بين الفقهاء: الفقه الأكبر، وهو ما يتعلَّق بالعقيدة التي لا مجال فيها للاجتهاد، وفقه الفروع، الذي فيه مجال للاجتهاد.

وما ذكره من التنصيص على قول اللسان واعتقاد القلب بين يدي هذه العقيدة؛ لأنَّ ما يُعتقد مطلوبٌ فيه أن يكون في القلب، وأن يكون على اللسان، ولا يُقال: إنَّه لم يذكر الأعمال، فيُشابه مرجئة الفقهاء؛ لأنَّه قد ذكر في هذه المقدِّمة أن الإيمان يكون بالقلب واللسان والعمل.

وكلامُ ابن أبي زيد - رحمه الله - هذا مشتملٌ على إثبات ألوهية الله وحده، وعلى النفي لأمر سبعة، هي: نفي الإلهية عن غيره، ونفي الشَّيْءِ، ونفي التَّظْيِر، ونفي الولد، ونفي الصاحبة، ونفي الشريك.

فقوله: « أن الله واحدٌ لا إله غيره » مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وهو مشتملٌ على بيان أن الله

وحده هو الإله الحق الذي يجب أن تُفرد له العبادة، وأن لا يكون لغيره نصيب منها، ولهذا الأمر العظيم أرسل الله الرُّسلَ وأنزل الكتب، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ آدَمَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فالله خلق الخلق، وأرسل الرُّسلَ، وأنزل الكتبَ لأمرهم بعبادته وحده، وترك عبادة غيره، وهذا النوع من التوحيد - وهو توحيد الألوهية، وهو إفراذ الله بالعبادة - هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة، التي هي توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الألوهية: توحيد الله بأفعال العباد، كاللِّدعاء والاستغاثة والاستعاذة والذُّبح والنَّذر، وغيرها من أنواع العبادة، كُلُّها يَجِبُ على العباد أن يَحْصُرُوا الله تعالى بها، وأن لا يجعلوا له فيها شريكاً.

وتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله، كالخلق والرِّزق والإحياء والإماتة والتصرُّف في الكون، وغير ذلك من أفعال الله التي هو مختصُّ بها، لا شريك له فيها.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على وجه يليقُ بكمال الله وجلاله، من غير تمثيل أو تكيف، ومن غير تحريف أو تعطيل.

وهذا التقسيم لأنواع التوحيد عُرف بالاستقراء من نصوص الكتاب والسُّنة، ويتَّضح ذلك بأوّل سورة في القرآن، وآخر سورة؛ فإنَّ كلاً منهما مشتملةٌ على أنواع التوحيد الثلاثة.



فأما سورة الفاتحة، فإن الآية الأولى فيها، وهي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ مشتملة على هذه الأنواع؛ فإن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيها توحيد
الألوهية؛ لأن إضافة الحمد إليه من العباد عبادة، وفي قوله: ﴿رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ إثبات توحيد الربوبية، وهو كون الله عز وجل رب العالمين،
والعالمون هم كل من سوى الله؛ فإنه ليس في الوجود إلا خالق ومخلوق،
والله الخالق، وكل من سواه مخلوق، ومن أسماء الله الرب.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مشتمل على توحيد الأسماء والصفات،
والرحمن الرحيم اسمان من أسماء الله يدلان على صفة من صفات الله، وهي
الرحمة، وأسماء الله كلها مشتقة، وليس فيها اسم جامد، وكل اسم من
الأسماء يدل على صفة من صفاته.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه إثبات توحيد الربوبية، وهو سبحانه مالك
الدنيا والآخرة، وإنما خصَّ يوم الدين بأن الله مالكة؛ لأن ذلك اليوم
يخضع فيه الجميع لرب العالمين، بخلاف الدنيا، فإنه وجد فيها من عتا
وتجبر، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه إثبات توحيد الألوهية،
وتقديم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ يُفيد الحصر، والمعنى: نخصُّكَ بالعبادة
والاستعانة، ولا نشرك معك أحداً.

وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ فيه إثبات توحيد الألوهية؛ فإن طلب
الهداية من الله دعاء، وقد قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»،
فيسأل العبد ربه في هذا الدعاء أن يهديه الصراط المستقيم الذي سلكه

النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون، الذين هم أهل التوحيد، ويسأله أن يُحِبَّه طريقَ المغضوب عليهم والضالّين، الذين لم يحصل منهم التوحيد، بل حصل منهم الشُّركُ بالله وعبادة غيره معه.

وأما سورة الناس، فقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فيه إثبات أنواع التوحيد الثلاثة؛ فإن الاستعاذة بالله من توحيد الألوهية.

﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فيه إثبات توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وهو مثل قول الله عزَّ وجلَّ في أول الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فيه إثبات الربوبية والأسماء والصفات.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ فيه إثبات الألوهية والأسماء والصفات.

والنسبة بين أنواع التوحيد الثلاثة هذه أن يُقال: إن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مستلزمان لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمّن لهما، والمعنى أن مَنْ أقرَّ بالألوهية فإنّه يكون مُقرّاً بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنَّ مَنْ أقرَّ بأنَّ الله هو المعبود وحده فخصّه بالعبادة ولم يجعل له شريكاً فيها، لا يكون منكراً بأنَّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأنَّ له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وأما مَنْ أقرَّ بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فإنّه يلزمه أن يُقرَّ بتوحيد الألوهية، وقد أقرَّ الكفّار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ بتوحيد الربوبية، فلم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، بل قاتلهم حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له، ولهذا يأتي كثيراً في القرآن تقرير توحيد الربوبية الذي أقرَّ به الكفّار؛ لإلزامهم بالإقرار بتوحيد الألوهية، ومن أمثلة ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنْ

فلا بدّ من تجريد الإخلاص لله وحده، ولا بدّ من تجريد المتابعة للنبي ﷺ، فلم يُجد العملُ مبنياً على سُنّة وفقد فيه شرطُ الإخلاص لم يُقبل؛

لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾، ولو وُجد العمل خالصاً لله لَكُنْه لَمْ يُنَّ عَلَى سُنَّةٍ، بَلْ بُنِيَ عَلَى الْبَدْعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ فَإِنَّهُ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صَحِّحَتِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، أَي: مَرْدُودٌ عَلَيْهِ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْهُ.

وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصاً لِلَّهِ، وَلَمْ يَكُن مَبْنِياً عَلَى سُنَّةٍ، وَكَانَ قَصْدُ صَاحِبِهِ حَسَناً أَنَّهُ مَحْمُودٌ وَنَافِعٌ لَصَاحِبِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ قَالَ لِلصَّحَابِيِّ الَّذِي ذَبَحَ أَضْحِيَّتَهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ: «شَاؤُكَ شَاءُ لَحْمٍ»، فَلَمْ يَعْتَبِرْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَضْحِيَّةً؛ لِأَنَّهَا ذُبِحَتْ قَبْلَ ابْتِدَاءِ وَقْتِ الذَّبْحِ الَّذِي يَبْدَأُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥٥٦)، وَمُسْلِمٌ (١٩٦١)، وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ فِي الْفَتْحِ (١٧/١٠): «قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ: وَفِيهِ أَنَّ الْعَمَلَ وَإِنْ وَافَقَ نِيَّةً حَسَنَةً لَمْ يَصَحَّ، إِلَّا إِذَا وَقَعَ عَلَى وَفْقِ الشَّرْعِ».

وَفِي سَنَنِ الدَّارِمِيِّ (٦٨/١ - ٦٩) أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَفَ عَلَى أَنَاسٍ فِي الْمَسْجِدِ مُتَحَلِّقِينَ وَبِأَيْدِيهِمْ حَصَى، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: كَبَّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلَّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبَّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! حَصَى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيَحْكُمُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! مَا أَسْرَعَ هَلَكَتِكُمْ! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلُ، وَأَنِيئَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ



محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه». وهذا الأثر أورده الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم: ٢٠٠٥).

وقول ابن أبي زيد رحمه الله: «أن الله إله واحد لا إله غيره» هو معنى كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله)، وهي مشتملة على نفي عام وإثبات خاص، فالنفي العام نفي العبادة عن كل من سوى الله، والإثبات الخاص إثباتها لله وحده، و(لا) نافية للجنس، وخبرها محذوف تقديره: حق، والمقصود نفي وجود إله بحق سوى الله، وإلا فإن الألهة بالباطل موجودة وكثيرة، وقد ذكر الله عن الكفار أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلُ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

والجملة الأولى من جمل النفي السبع في كلام ابن أبي زيد «لا إله غيره» تأكيد لقوله: «أن الله إله واحد»، وختمها بقوله: «ولا شريك له»؛ لبيان أن العبادة يجب أن تكون خالصة لله، وألا يكون له شريك في أي نوع من أنواع العبادة، والله تعالى واحد في ربوبيته، وواحد في ألوهيته، وواحد في أسمائه وصفاته، فلم يُشاركه أحد في ألوهيته؛ فهو مستحق للعبادة دون من سواه، ولم يُشاركه أحد في ربوبيته، فهو سبحانه وحده الخالق المدبر، ولم يُشاركه أحد في أسمائه وصفاته؛ لأن المعاني اللاتقة بالله لا يُشاركه أحد من خلقه فيها.

وقوله: «ولا شبيه له ولا نظير» أي: أن الله لا مثل له ولا يُشبهه أحد من خلقه، بل هو المتفرد بصفاته، قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له».

وهذه الآية أصل في عقيدة أهل السنة في الأسماء والصفات، وهي الإثبات مع التنزيه، بخلاف المشبهة، فإن عندهم الإثبات مع التشبيه، وبخلاف المعطلة، فإن عندهم التنزيه مع التعطيل، وأهل السنة أثبتوا الصفات، ونزّهوها عن مشابهة المخلوقات.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات لاسمَي السميع والبصير، وهما يدلان على إثبات صفتَي السمع والبصر.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يدل على التنزيه، أي: أنه له سمع لا كالأسماع، وبصر لا كالأبصار.

وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هل تعلم للربّ مثلاً أو شبيهاً، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم».

وقال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، والكفو هو المثل والنظير، قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦/٢٠): «لم يكن له شبيه ولا عدل، ليس كمثله شيء».

وكلمة ﴿أَحَدٌ﴾ جاءت في سياق النفي، فتكون عامة في نفي كل شبيه أو مثل، وما جاء في تفسير ابن كثير من تفسير هذه الكلمة بالزوجة هو من قبيل التفسير بالمثال، وهذه الجملة من السورة مؤكدة لما تقدّم من الجُمْل، ولا سيما الجملة الأولى، فهو سبحانه وتعالى أحد، ولا يكون أحد كفواً له.

وقوله: «ولا وَلَدٌ له، ولا وَلَدٌ له، ولا صاحبة له» الصاحبة هي الزوجة، وقد جاء في القرآن نفي الولد والوالد والصاحبة عن الله عز وجل،



قال الله عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾، فنفى عنه الوالد والولد، ونفى عنه كل مثل ونظير، ومنه الزوجة، وفي هذه السورة الكريمة إثبات أحديته وصمديته، ونفى الأصول والفروع والنظراء عنه، فهو أحد لا كفء له، وهو صمد لا ولد ولا والد له، والصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق بموائجها، وهو الغني عن كل من سواه، المفتقر إليه كل من عداه، فلكمال غناه لا يحتاج إلى الوالد والولد، ولكونه واحداً واحداً لا يكون أحد له مثلاً ونظيراً، والوالد جاء نفيه في القرآن عن الله في هذه السورة في قوله: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ﴾، وأما الولد فقد جاء نفيه عن الله في آيات كثيرة، وذلك أن اليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، والكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ يقولون: الملائكة بنات الله، ومن ذلك قول الله عز وجل في البقرة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَيْنَتُونَ ۝ ﴾، وقال في المؤمنون: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ۝ ﴾، وقال في مريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ ﴾، وغير ذلك من الآيات منها في النساء والأنعام والتوبة ويونس والإسراء والكهف والأنبياء والصفات والزخرف والجن.

وأما الصاحبة، فقد جاء نفيها عن الله عز وجل في القرآن مع نفي الولد عنه في قوله عز وجل: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۝ ﴾، وقوله عن الجن: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّيًا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ ﴾، أي: تعالت عظمته.



وما جاء في كلام ابن أبي زيد - رحمه الله - من نفي الشبيه والنظير والوالد والولد والصاحبة هو نفي على طريقة السلف، وهو نفي متضمن إثبات كمال الله عز وجل، فنفي الشبيه والنظير متضمن إثبات كمال أحديته، ونفي الوالد والولد والصاحبة متضمن إثبات كمال غناه، وكل ما جاء في القرآن من نفي شيء عن الله فإنه يتضمن إثبات كمال ضد ذلك المنفي، مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، فإنه دال على إثبات كمال قدرته، وكذا قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾، أي: من تعب، فهو متضمن إثبات كمال قدرته، ومثل قوله: ﴿وَلَا يَظَلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾، وهو دال على إثبات كمال عدله، وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، فهو دال على إثبات كمال علمه.

وهذا بخلاف النفي عند أهل الكلام، فإنه لا يدل على كمال، بل يؤدي إلى تشبيه الله عز وجل بالمعدومات، كما سبق إيضاح ذلك في الفائدة الثانية.



٢ - قوله: «ليس لأوليئته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء».

كلام ابن أبي زيد هذا منتزع من قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وفي هذه الآية إثبات اسم (الأول) لله عز وجل، الذي يدل على أن كل شيء آيل إليه، واسم (الآخر) الدال على بقاءه ودوامه وآخريته، وقد جاء تفسير هذه الأسماء في



هذه الآية في حديث مشتمل على دعاء، وفيه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أَقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى قول ابن أبي زيد هذا أن الله لم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم، وأمّا المخلوقات فلها بداية سبقها عدم، ولها نهاية يلحقها عدم.

وأمّا ما جاء في نصوص الكتاب والسنة من بقاء الجنة والنار ودوامهما ودوام أهلها فيهما، فلا يُنافي كونه سبحانه الآخر الذي ليس بعده شيء؛ لأنّ بقاءه لازمٌ لذاته، بخلاف الجنة والنار ومن فيهما، فإنّه مكتسبٌ قد شاء الله وأراد، ولو لم يشأه لم يحصل ولم يقع، قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (ص: ٦٢٩): «وبقاء الجنة والنار ليس لهما، بل بإبقاء الله لهما».

وقول ابن أبي زيد: «ليس لأوّلَيْتِه ابتداءً، ولا لآخرَيْتِه انقضاءً» أولى من قول الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: «قدم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء»؛ لتعبيره بما يُطابق اسمي الله: الأول والآخر.



٣ - قوله: «لا يُلْغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَاهِيَةِ ذَاتِهِ».

أهل السنة يصفون الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، على ما يليق به سبحانه وتعالى، مع فهم المعنى والجهل بالكيف، فهم يُثبتون الصفات ولا يبحثون عن كيفيةها، وهم مَفُوضَةٌ بالكيف دون المعنى، كما [قطف الجنى الدانى]



جاء ذلك واضحاً في الأثر المشهور عن مالك - رحمه الله - عندما سُئل عن كيفية الاستواء، فقال: « الاستواءُ معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».

ومعنى كلام ابن أبي زيد أنه لا يستطيع أحد أن يصف الله بما هو عليه، بأن يعرف كيفية اتصافه بالصفات؛ لأن ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو.

وقوله: « ولا يحيط بأمره المتفكرون »، أمرُ الله منه ما هو كونيٌ قَدري، ومنه ما هو دينيٌ شرعي، فالكونيُّ مثل قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾، والشرعيُّ مثل قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾.

وكلٌّ من الأمر الكوني والأمر الشرعي مشتملٌ على حكمة، فما قدره الله فلحكمة، وما شرعه الله فلحكمة، وقد يعلم العبادُ شيئاً من الحكم في الأمر الكوني القَدري والأمر الشرعي، ولكنهم لا يحيطون بحكم الله في خلقه وشرعه؛ فإن الواجبَ الإيمانُ بالقدر، والاستسلامُ للأمر والنهي، سواء عرف العبادُ حكم ذلك أم لم يعرفوها.

ولكنهم إذا عرفوا شيئاً من ذلك زاد إيمانهم ويقينهم، وإذا لم يعرفوا الحكمة في القدر والشرع فإن ذلك لا يثنيهم عن القيام بما هو واجبٌ عليهم من الإيمان بالقدر والانقياد للأحكام الشرعية.

والذي اشتمل عليه كلام ابن أبي زيد - رحمه الله - نفى الإحاطة بالحكم والأسرار؛ لتعبيره بقوله: « المتفكرون » وليس المقصود معرفة الأحكام الشرعية؛ فإن ذلك مطلوبٌ فيه العلم والعمل؛ لقوله ﷺ في



الحديث: « ما هَيِّئْكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ » أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٢٧).

وقوله: « يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ فِي آيَاتِهِ » آياتُ الله نوعان: شرعية وكونية، فالآياتُ الشرعية هي التي اشتمل عليها القرآن الكريم، والآيات الكونية آياته في خلقه كالليل والنهار، والشمس والقمر وغير ذلك، ويدلُّ للاعتبار بالآيات الشرعية قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾، وقوله: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾.

ويدلُّ للاعتبار بالآيات الكونية قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوَبْئِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ﴿٦٩﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: «ولا يتفكرون في ماهية ذاته» الله عز وجل بذاته وصفاته الخالق، وما سواه مخلوق، وقد مرَّ في كلام ابن أبي زيد - رحمه الله - التفويض لكيفية الصفات، وأنه لا يبلغ كنه صفته الواصفون، وكما أنه لا يجوز البحث في كيفية الصفات، فكذلك لا يجوز البحث في كيفية الذات، ولهذا قال هنا: «ولا يتفكرون في ماهية ذاته» أي حقيقتها والكيفية التي هي عليها.

٤ - قوله: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم».

هذه الجمل الأربع قطعة من آية الكرسي المشتملة على عشر جمل، ومثلها في الاشتمال على عشر جمل قول الله عز وجل: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ



كَيْسِرٌ وَأَمْرَتْ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾ ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ
كثير - رحمه الله - عند تفسيره هذه الآية من سورة الشورى .

قوله: « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » من صفات الله عزَّ
وجلَّ العلم، وعلمُه محيطٌ بكلِّ شيء، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ، أمَّا المخلوقون
فلا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه، كما قال: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ
مِّنْ عِلْمِيهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ، وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ، وقال: ﴿ عَنِلُمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا
﴿١٠١﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ ،
وأخبر الله عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ ، وأمر الله نبيه محمداً
ﷺ أن يُخبر قومه أنه لا يعلم الغيب، فقال: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي
خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ،
وقال: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبِ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وأخبر الله عن الملائكة أنهم: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، وقال الله
عن الجن: ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ،
وقال: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ آلِحُنَّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ ﴾ .



وأما السُّنة فقد جاء فيها أحاديث كثيرة تدلُّ على بيان أمور لا يعلمها الرسول ﷺ، مثل قصَّة الإفك، فإنَّه لم يَعْلَمْ براءة أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلاَّ بعد نزول القرآن في براءتها في آيات تُتلى في سورة النور، ومثل قصة العقد الذي فقدته عائشة رضي الله عنها في إحدى سفراتها مع النَّبيِّ ﷺ، وقد بقوا في منزلهم للبحث عنه، وانتهى ماؤهم، فأنزل الله إليه آية التيمُّم، وعند رحيلهم وُجد العقد تحت الجمل الذي تركب عليه عائشة.

قال ابن كثير عند تفسير آية الكرسي: « وقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحدٌ من علم الله على شيء إلاَّ بما أعلمه الله عزَّ وجلَّ وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلاَّ بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ».

وقوله: « وسع كرسيه السموات والأرض » الكرسيُّ مخلوقٌ من مخلوقات الله، وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه موضع القدمين، كما في المستدرک للحاكم (٢/٢٨٢)، وقال: « إنَّه على شرط الشيخين ولم يخرجاه »، ولم يتعقبه الذهبي، وفي إسناده عمَّار الدُّهني، وهو من رجال مسلم دون البخاري.

وانظر تخريجه في السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني (٩٠٦)، والضعيف فيه هو المرفوع، وأما الأثر الذي جاء عن ابن عباس من تفسير الكرسي بالعلم، ففي إسناده جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبیر، قال فيه الحافظ في التقریب: « صدوث بهم »، وقال ابن منده في كتاب الرد على



الجهمية (ص: ٤٥): « لم يُتَابَع عليه جعفر، وليس بالقوي في سعيد بن جُبَيْر »، وأورده الذهبي في ترجمة جعفر في الميزان (٤١٧/١) وقال: « وذكره ابن أبي حاتم وما نقل توثيقه، بل سكت »، ونقل ما تقدّم عن ابن منده.

وقال الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: « والعرشُ والكرسيُّ حقٌّ ».

وقوله: « ولا يؤوِّده حفظهما » أي: لا يثقله ولا يشقُّ عليه، وهو نفى متضمّن إثبات كمال قدرته، قال ابن كثير في تفسيره: « أي: لا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهلٌ عليه يسيراً لديه ».

وقوله: « وهو العليُّ العظيم » اسمان من أسماء الله يدلّان على صفتين من صفات الله، وهما العلوُّ والعظمة، والله تعالى متّصفٌ بالعلوِّ بأنواعه الثلاثة: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذات، وقد جاء اسم الله العليّ في القرآن مقترناً بثلاثة من أسماء الله، وهي العظيم، والحكيم، والكبير مع تقدّمه عليها في الذكر.

فاقترأنه بالعظيم كما هنا، وفي أوّل سورة الشورى.

واقترانه بالكبير كما في سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ ، وفي سورتي الحج ولقمان: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .
واقترانه بالحكيم كما في آخر سورة الشورى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ .





٥ - قوله: « العالمُ الخبيرُ، المدبِّرُ القديرُ، السميعُ البصيرُ، العليُّ الكبيرُ ».

العليم الخبير اسمان من أسماء الله يدلان على صفتي العلم والخبرة، وهما متقاربان في المعنى، وجاء في بعض النسخ: « العليم » بدل « العالم »، و« العليم » أولى لأمرين:

الأول: أن « العليم » جاء في القرآن كثيراً مطلقاً غير مقيد، وأما « العالم » فيأتي في القرآن مقيداً بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، وقوله: ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾، وقوله: ﴿ عَلِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

والثاني: أنه يأتي في القرآن كثيراً اقتران اسم « العليم » باسم « الخبير » مع تقدُّم اسم « العليم » كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ خَبِيرٌ ﴾، وقال: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾.

وقوله: « المدبِّرُ القدير » القدير اسمٌ من أسماء الله يدلُّ على صفة من صفات الله، وهي القدرة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وقدرة الله عامَّةٌ لكلِّ شيء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾، وقال: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

وأما المدبِّرُ فلا أعلم ما يدلُّ على أنه من أسماء الله، وقد جاء وصفُ الله



تعالى بالتدبير، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، وقال: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، والله سبحانه وتعالى المدبّر للأمر المتصرّف في الكون كيف يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: «السميع البصير» السميع البصير اسمان من أسماء الله يدلان على صفتين من صفات الله، وهما السَّمْع والبصر، وسَمِعَ الله محيطٌ بكلِّ المسموعات، وبصره محيطٌ بكلِّ المرئيات، قال الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة الجمعُ في وصف الله بالسَّمْع بين الفعل الماضي والمضارع والاسم، وهذان الاسمان يأتيان مقروناً بينهما في كثير من آيات القرآن، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: «العليُّ الكبير» العليُّ والكبير اسمان من أسماء الله يدلان على صفتي العلوِّ والكبر، والله تعالى عال على كلِّ شيء قهراً وقدرًا وذاتاً، وهو أكبر من كلِّ كبير وأعظم من كلِّ عظيم، والمخلوقات كلها حقيرة أمام كبرياء الله وعظمته سبحانه وتعالى.

وقد مرَّ قريباً أن اسمَ العليّ يأتي مقترناً باسم الكبير، ومرَّ ذكر بعض الآيات في ذلك، ومنها أيضاً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

٦ - قوله: «وأنَّه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كلِّ مكان بعلمه».

لَمَّا ذكر ابن أبي زيد - رحمه الله - أن من أسماء الله العليّ، وقد ذكره قريباً مقترناً باسم العظيم، وباسم الكبير، بيّن في هذا أن علوّ الله عزَّ وجلَّ وفوقيّته على عرشه أنَّه علوّ بالذات، كما أنَّه عليٌّ بالقدر وعليٌّ بالقهر، وإنّما نصَّ على علوّه على عرشه بذاته لما وُجد من يقول: إنَّ علوّ الله علوّ قدرٍ وعلوّ قهرٍ، وأوّلَ علوّه على عرشه باستيلائه عليه، وأنَّه ليس على العرش حقيقةً بذاته، فعبرَ بعلوّ الذات ردّاً على من قال: إنَّه علوّ مجازيٌّ وليس بحقيقيّ، وهذا نظيرُ قولِ السلف عن القرآن إنَّه غيرُ مخلوقٍ لما وُجد من يقول: إنَّه مخلوقٌ.

وأما قوله: «وهو في كلِّ مكان بعلمه» فهو لنفي القولِ بالحللول والاتّحاد، وهو أن الله حالٌّ في المخلوقات، متّحدٌ معها، مختلطٌ بها؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ الخالقُ، وكلُّ ما سواه مخلوقٌ، والمخلوقاتُ كلّها كانت عدماً فأوجدّها الله، ووُجودُها مباينٌ لوجودِ الله، وهو سبحانه وتعالى بائنٌ من خلقه، ليست المخلوقاتُ حالةً في الله، ولا الخالقُ حالاً في المخلوقات.

ومعِيةَ الله فُسِّرَتْ بأنّها معِيةٌ بالعلم، كما قال ابنُ أبي زيد القيرواني هنا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ



مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا
أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، فقد بُدئت هذه الآية بالعلم، وخُتمت
بالعلم.

وُفُسِّرَتْ بِأَنَّهَا مَعِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، والمعنى أَنَّ اللَّهَ فوق عرشه بذاته، وهو مع
خلقه دون امتزاج أو اختلاط؛ فَإِنَّ المخلوقات صغيرةٌ حقيرةٌ أمام عظمة الله
وكبريائه، واللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مع كونه فوق عرشه، فهو قريبٌ من عباده، قال
شيخُ الإسلام ابن تيمية في الواسطية: «وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان
باللَّهِ الإِيمانُ بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله ﷺ وأجمع عليه
سلفُ الأُمَّة، من أَنَّهُ سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليٌّ على خلقه،
وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك
في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وليس معنى قوله:
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مختلطٌ بالخلق، فَإِنَّ هَذَا لا توجُّبه اللُّغة، وهو خلاف ما
أجمع عليه سلفُ الأُمَّة، وخلاف ما فَطَرَ اللَّهُ عليه الخلق، بل القمر آيةٌ من
آيات الله، من أصغر مخلوقاته، وهو موضوعٌ في السماء، وهو مع المسافر
وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش، رقيبٌ على خلقه،
مُهَيِّمٌ عليهم، مَطَّلَعٌ إليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، وكلُّ هذا
الكلام الذي ذكره الله سبحانه - من أَنَّهُ فوق العرش وأَنَّهُ معنا - حقٌّ على
حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، لكن يُصَانُ عن الظنون الكاذبة، مثل أن
يُظَنُّ أَنَّ ظاهرَ قوله (في السماء) أَنَّ السماء تُقَلُّه أو تُظَلُّه، وهذا باطلٌ



بإجماع أهل العلم والإيمان؛ فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ﴿وَيُحْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ..

إلى أن قال: « وما ذكر في الكتاب والسنة من قربهِ ومعِيته لا يُنافي ما ذكر من علوّه وفوقيّته؛ فإنّه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليّ في دُئوّه، قريبٌ في علوّه .. »

ويشيرُ شيخُ الإسلام رحمه الله بالجملة الأخيرة وهي قوله: « عليّ في دُئوّه، قريبٌ في علوّه » إلى ما جاء في حديث نُزول الرّبِّ إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، وحديث عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم (١٣٤٨): أن رسول الله ﷺ قال: « ما من يوم أكثر من أن يُعقّق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنّه ليدنو، ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟ .. »



٧ - قوله: « خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .. »

علّم الله محيطٌ بكلّ شيء، فقد علّم أزلاً ما كان وما سيكون، وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ



لَكَذِبُونَ»، فأخبر عن أمر لا يكون، وهو رجوع الكفار إلى الدنيا، وأنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعِمْقَادٍ ﴿٧٥﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٧٦﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، وقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٧﴾﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»، وقال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وكلُّ ما هو كائنٌ في الوجود من حركة أو سكون قد سبق به علمُ الله، ولا يحصل لله علم في شيء لم يكن معلوماً له من قبل أزلاً، قال شيخنا محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه أضواء البيان (١/ ٧٥ - ٧٦) عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾، قال: «ظاهرُ هذه الآية قد يتوهم منه الجاهلُ أنَّه تعالى يستفيد بالاختبار. علماً لم يكن يعلمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالمٌ بكلِّ ما سيكون قبل أن يكون، وقد بينَّ أنَّه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَيَبْتَلِيَ﴾ دليل قاطع على أنَّه لم



يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأنَّ العليم بذات الصدور غنيٌّ عن الاختبار، وفي هذه الآية بيانٌ عظيمٌ لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختبارَه لخلقه، ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علماً يترتبُ عليه الثواب والعقاب، فلا يُنافي أنَّه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالمُ السرِّ والتَّجوى فهو عالمٌ بكلِّ ما سيكون كما لا يخفى..

وأما قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، فقد فُسِّرَ بتفسيرين: أحدهما: قُرْبُه بالعلم والقُدرة والإحاطة، وهذا الذي يظهر من كلام ابن أبي زيد رحمه الله.

والثاني: قُرْبُ الملائكة، نظير قوله في الواقعة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، وقد رجَّحه ابن كثير في تفسيره، وابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/٢٦٨)، وقد جاء في القرآن الكريم ذكرُ الضمير بلفظ التعظيم والمرادُ به الملائكة، كما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، والذي قرأه على الرسول ﷺ جبريلُ، وقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْتَدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، وهو إنما جادل الملائكة، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۚ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ الآية.



٨ - قوله: « على العرش استوى، وعلى الملك احتوى ».

من صفات الله الفعلية استواؤه على عرشه، ومذهب السلف فيه وفي سائر الصفات إثبات الجميع على ما يليق بالله من غير تكييف أو تمثيل، ومن غير تحريف أو تعطيل، مع فهم المعنى والجهل بالكيفية، كما قال الإمام مالك رحمه الله - وقد سئل عن كيفية الاستواء - قال: « الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره عند تفسير آية الاستواء على العرش من سورة الأعراف، قال: « وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ آسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلكت في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله؛ فإن الله لا يُشبهه شيء من خلقه، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري، قال: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ، فَمَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النِّقَاطَ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى ».

وقد جاء إثبات استواء الله على عرشه في القرآن في سبعة مواضع، قال الله عز وجل في سورة طه: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، وقال: ﴿ ثُمَّ



أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿ في الأعراف ويونس والرعد والفرقان والسجدة والحديد.

ومعنى ﴿ أَسْتَوَى ﴾ عند السلف: ارتفع وعلا، وأمّا المتكلمون فيؤوّلون ﴿ أَسْتَوَى ﴾ بمعنى استولى، وهو باطل، قال أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - في كتابه الإبانة (ص: ٨٦): «وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إنّ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ أنّه استولى ومَلَكَ وقَهَرَ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ في كلّ مكان، وجحدوا أن يكون الله عزَّ وجلَّ على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ فالله سبحانه قادرٌ عليها وعلى الحشوش وعلى كلّ ما في العالم، فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عزَّ وجلَّ - مُستوٍ على الأشياء كلّها - لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنّه قادرٌ على الأشياء، مُستولٍ عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلّها ولم يَجْزُ عند أحد من المسلمين أن يقول: إنّ الله عزَّ وجلَّ مستوٍ على الحشوش والأخيلية، لم يَجْزُ أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلّها، ووجب أن يكون معناه استواء يختصُّ العرش دون الأشياء كلّها».

وقد بيّن ابن القيم بطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء من اثنين وأربعين وجهاً في كتابه الصواعق المرسلة كما في مختصره لمحمد بن الموصلي (١٢٦/٢ - ١٥٢).

ولمّا قال ابن أبي زيد - رحمه الله - : « على العرش استوى »، قال



عَقَبَهُ: « وعلى الملك احتوى »، وكأنَّه يشير بذلك إلى إبطال قول المتكلمين: استوى بمعنى استولى؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ مالكُ كلِّ شيءٍ: العرش وغير العرش، والله وحده الخالق، ومن سواه مخلوق، والذي تفرَّد بالخلق والإيجاد هو المتفرَّد بالملك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال: ﴿ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا فِيْهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ، وقال: ﴿ وَلِلّٰهِ الْحَمْدُ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَثِيرُهُ نَكِيرًا ﴾ ، وقال: ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ، وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِىْنَ رَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللّٰهِ لَا يَمْلِكُوْنَ مِنْثَقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْاَرْضِ وَمَا هُمْ فِيْهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ ، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِىْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أُرُونِىْ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْاَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوٰتِ أَمْ اَتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ اِنْ يَعِدُ الظَّالِمُوْنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا اِلَّا غُرُورًا ﴾ * إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ اَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا اِنْ اَمْسَكَهُمَا مِنْ اَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ اِنَّهُمْ كَانُوْا حَلِيْمًا غَفُوْرًا ﴿ .



٩ - قوله: « وله الأسماء الحسنى والصفات العلى ».

١ - أسماء الله وصفاته من علم الغيب التي لا يجوز الكلام فيها إلا بما جاء به الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فثبت لله عز وجل ما أثبت له نفسه أو أثبت له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على ما يليق به سبحانه وتعالى دون تكيف وتمثيل، ودون تحريف وتعطيل، مع تنزيهه عن كل ما لا يليق به، كما قال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

٢ - جاء في القرآن الكريم إثبات الأسماء لله عز وجل، ووصفها بأنها حسنى، قال الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾، وقال: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾، وقال: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾.

ومعنى كون أسماء الله حسنى أنها بلغت في الحسن غاية ونهايته، فلا تُوصف أسماء الله بأنها حسنة فحسب، بل تُوصف بأنها حسنى، كما جاء في هذه الآيات الكريمات.

٣ - أسماء الله كلها مشتقة، تدل على معان هي صفات، فالعزير يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، والكريم يدل على الكرم، والعظيم يدل على العظمة، واللطيف يدل على اللطف، والرحمن والرحيم يدلان على الرحمة، وهكذا.

وليس في أسماء الله اسم جامد، وما ذكره بعض أهل العلم من أن من أسماء الله « الدهر » فغير صحيح؛ فإن الحديث القدسي: « يُؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار » رواه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢٢٤٦)، لا يدل على أن من أسماء الله الدهر؛ لأن



الدَّهْرَ هو الزمان، والله تعالى هو الذي يُقَلَّبُ اللَّيْلَ والنهار، فَمَنْ سَبَّ المَقْلَبَ (بفتح اللّام وتشديدها) وهو الدَّهْرُ، رجعت مسبته إلى المَقْلَبَ (بكسر اللّام وتشديدها) وهو الله، وقد بيّن الله ذلك بقوله: «بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

وأما الصفات فليس كلُّ صفة يُشتقُّ منها اسم؛ فإنَّ من صفات الله الذاتية الوجه واليد والقدم، ولا يُؤخذ منها أسماء، ومن صفاته الفعلية الاستهزاء والكيد والمكر، ولا يُشتقُّ منها أسماء، فلا يُسمَّى بالماكر والمستهزئ والكائد.

وأقول - والشيء بالشيء يُذكر -: إنَّ أسماء الرسول ﷺ الثابتة مُشتقة، تدلُّ على معان، وليس فيها اسم جامد، وليس من أسمائه ﷺ: طه ويس، قال ابن القيم - رحمه الله - في تحفة المودود (ص: ١٢٧): «وَمِمَّا يُمنَعُ منه التسمية بأسماء القرآن وسُورِهِ، مثل: طه، ويس، وحَم، وقد نصَّ مالكٌ على كراهة التسمية بـ: يس، ذكره السُّهيلي، وأما ما يذكره العوام أنَّ يس وطه من أسماء النَّبيِّ ﷺ فغيرُ صحيح، ليس ذلك في حديث صحيح ولا حسن ولا مرسل، ولا أثر عن صاحب، وإنما هذه الحروف مثل: الم، وحَم، والر، ونحوها».

ولعلَّ مَنْ توهَّم التسمية بـ(طه) و(يس) من العوام أخذَه من الخطاب للنبيِّ ﷺ بعد ذكر الحروف المقطعة في سورتي طه ويس، ظانًّا أنَّ هذين من أسمائه ﷺ؛ فإنَّ خطاب النَّبيِّ ﷺ جاء أيضاً بعد الحروف المقطعة في سورتي الأعراف وإبراهيم مثلاً، ولا يُقال: إنَّ من أسمائه ﷺ لذلك: (المص)، و(الر).



٤ - أسماء الله عز وجل غير محصورة بعدد؛ فإن منها ما أطلع الله عز وجل الناس عليه، ومنها ما استأثر بعلمه، ويدل لذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً، قال: فقيل: يا رسول الله! ألا نتعلمها؟ فقال: بلى! ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » رواه الإمام أحمد في المسند (٣٧١٢)، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وصاحبه بتضعيفه، وقد نقلوا عن الحافظ ابن حجر تحسينه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٨)، وقد صحح هذا الحديث ابن القيم، وشرحه شرحاً واسعاً في كتابه شفاء العليل، في الباب السابع والعشرين منه (ص: ٣٦٩ - ٣٧٤).

والأصل عدم حصر الأسماء بعدد معين إلا بدليل يدل على ذلك، ولا أعلم دليلاً يدل عليه، وأمّا الحديث الذي رواه البخاري (٢٧٣٦)، ٦٤١٠، (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة، » فلا يدل على حصر أسماء الله في هذا العدد، بل يدل على أن من أسماء الله تسعة وتسعين اسماً، من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، كما لو قال قائل: عندي مائة كتاب أعدتها لطلبة العلم؛ فإنه لا يدل على أنه ليس عنده إلا هذا العدد.



٥ - لم يثبت في سرد الأسماء حديث، وقد اجتهد بعض العلماء في استخراج تسعة وتسعين اسماً من الكتاب والسنة، منهم الحافظ ابن حجر فقد جمع هذا العدد في كتاب فتح الباري (١١/٢١٥)، وفي التلخيص الحبير (٤/١٧٢)، ومنهم الشيخ محمد بن عثيمين في كتابه القواعد المثلى (ص: ١٥ - ١٦)، وهذه الكتب الثلاثة متفقة في أكثر الأسماء، ويوجد في أحدهما ما لا يوجد في الآخر.

وأسرُد فيما يلي تسعة وتسعين من أسماء الله الحسنى، مرتبة على حروف الهجاء، ومع كل اسم دليله من الكتاب أو السنة، وفيها زيادة على ما في الكتب الثلاثة اسماً: (الستير، والديان).

١. الله: يُطلق على هذا الاسم لفظ الجلالة، ويأتي مراداً به المسمى مبتدأ، ويُخبر عنه بالأسماء، مثل: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وتُنسب له الأسماء، كما قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.
٢. الآخر: دليله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾.
٣. الأحد: دليله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.
٤. الأعلى: دليله ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.
٥. الأكرم: دليله ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.
٦. الإله: دليله ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهِبُونَ﴾.
٧. الأول: دليله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾.
٨. الباري، دليله ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ﴾.



٩. الباطن: دليله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.
١٠. البر: دليله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.
١١. البصير: دليله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.
١٢. التَّوَّاب: دليله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.
١٣. الجَبَّار: دليله ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾.
١٤. الجميل: دليله حديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» رواه مسلم (١٤٧).
١٥. الحافظ: دليله ﴿فَاللَّهُ خَمَرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
١٦. الحسيب: دليله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.
١٧. الحفيظ: دليله ﴿إِنْ رَنَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.
١٨. الحق: دليله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾.
١٩. الحَكَم: دليله حديث: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» رواه أبو داود (٤٩٥٥) وغيره، وإسناده حسن.
٢٠. الحَكِيم: دليله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
٢١. الحلِيم: دليله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
٢٢. الحميد: دليله ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.
٢٣. الحي: دليله ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.
٢٤. الحَيُّ: دليله حديث: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيٌّ سَتِيرٌ، يُحِبُّ الْحَيَاءَ



والسّتر» رواه أبو داود (٤٠١٢) وغيره، وإسناده حسن.

٢٥. الخالق: دليله ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾.

٢٦. الخبير: دليله ﴿قَالَ تَبَّانِ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

٢٧. الخلاق: دليله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ﴾.

٢٨. الديان: دليله قول رسول الله ﷺ: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ - أَوْ قَالَ:

الناس - عُرَاةً غُرُلًا بُهْمًا، قَالَ: قلنا: مَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ،

ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَرَبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا

الدِّيَانُ» الحديث، أخرجه الحاكم في المستدرک في موضعين (٤٣٨/٢)،

(٥٧٤/٤)، وصحّحه وأقرّه الذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (١٧٤/١)،

والألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٤٦).

٢٩. الرّبُّ: دليله ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾.

٣٠. الرَّحْمَنُ: دليله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

٣١. الرحيم: دليله ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

٣٢. الرزاق: دليله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

٣٣. الرّفيق: دليله حديث: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ» رواه البخاري

(٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

٣٤. الرقيب: دليله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

٣٥. الرؤوف: دليله ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٣٦. السُّبُّوح: دليله حديث: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»

رواه مسلم (٤٨٧).

٣٧. السّتير: دليله مرّة عند اسم الحيى.



- ٣٨ . السلام: دليله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ .
- ٣٩ . السميع: دليله ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَائُورُكُمْ إِنَّا اللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ .
- ٤٠ . السيد: دليله حديث: « السيد الله تبارك وتعالى » رواه أبو داود (٤٨٠٦) وإسناده صحيح.
- ٤١ . الشافي: دليله حديث: « اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت » رواه البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١).
- ٤٢ . الشاكر: دليله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .
- ٤٣ . الشكور: دليله ﴿ إِنَّا رَبُّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .
- ٤٤ . الشهيد: دليله ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .
- ٤٥ . الصمد: دليله ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .
- ٤٦ . الطيب: دليله حديث: « إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا » رواه مسلم (١٠١٥).
- ٤٧ . الظاهر: دليله ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ .
- ٤٨ . العزيز: دليله ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .
- ٤٩ . العظيم: دليله ﴿ وَلَا يُؤْذَهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .
- ٥٠ . العفو: دليله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ ﴾ .
- ٥١ . العليم: دليله ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَانُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .
- ٥٢ . العلي: دليله ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ .
- ٥٣ . الغالب: دليله ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا



يَعْلَمُونَ ﴿

٥٤. الغفار: دليله ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿

٥٥. الغفور: دليله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿

٥٦. الغني: دليله ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿

٥٧. الفتح: دليله ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ

الْعَلِيمُ ﴿

٥٨. القادر: دليله ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ

أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴿

٥٩. القاهر: دليله ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿

٦٠. القدوس: دليله ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ

الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿

٦١. القدير: دليله ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿

٦٢. القريب: دليله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴿

٦٣. القهار: دليله ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿

٦٤. القوي: دليله ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿

٦٥. القيوم: دليله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿

٦٦. الكبير: دليله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿

٦٧. الكريم: دليله ﴿ يَتَأَيَّمُوا لِإِنْسَانٍ مَا عَرَّفَكَ بَرِيكَ الْكَرِيمِ ﴿

٦٨. الكفيل: دليله ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۖ ۞، وحديث قصة الإسرائيلي الذي قال لِمَنْ أَسْلَفَهُ:



« كفى بالله كفيلاً » رواه البخاري (٢٢٩١).

٦٩. اللطيف: دليله ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾.

٧٠. المبين: دليله ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾.

٧١. المتعال: دليله ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾.

٧٢. المتكبر: دليله ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾.

٧٣. المتين: دليله ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾.

٧٤. المجيب: دليله ﴿ إِنَّ نَبِيَّ قَرِيبٍ مُجِيبٌ ﴾.

٧٥. المجيد: دليله ﴿ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْتُهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾.

٧٦. المحسن: دليله حديث: « إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » رواه ابن أبي عاصم في الدييات (ص: ٥٦)، وابن عدي في الكامل (٢١٤٥/٦)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١١٣/٢)، وإسناده حسن كما ذكر الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٧٠)، وانظر صحيح الجامع الصغير (١٨١٩) و(١٨٢٠).

٧٧. المحيط: دليله ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾.

٧٨. المصور: دليله ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾.

٧٩. المعطي: دليله حديث: « وَاللَّهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ » رواه البخاري (٣١١٦).

٨٠. المقتدر: دليله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾.

٨١. المقدم: دليله حديث « أَنْتَ الْمَقْدُمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ » رواه البخاري (١١٢٠) ومسلم (٧٧١).



٩٨ . الولي: دليله ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾.

٩٩ . الوهاب: دليله ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾.

وقد أورد ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين (٣/ ١٤٩ - ١٧١) تسعة وتسعين وجهاً تدلُّ لقاعدة سدِّ الذرائع، مُقتصرًا على ذلك؛ موافقة لعدة أسماء الله الحُسنى الواردة في الحديث.

وأوردتُ في كتابي: دراسة حديث (نَضَرَ الله امرأً سمع مقالتي) رواية ودراية (ص: ٢٠١ - ٢١٠) تسعاً وتسعين فائدة مُستنبطة من هذا الحديث، الذي ورد بألفاظ كثيرة مختصراً ومُطوَّلاً.

٦ - من أسماء الله ما يُطلق على غيره، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾، والمعاني التي تدلُّ عليها الأسماء لا يشبه فيها الخالقُ المخلوق، ولا المخلوقُ الخالق.

ومنها ما لا يُطلق إلاَّ على الله، ولا يُطلق على غيره، مثل: الله، والرحمن، والخالق، والبارئ، والرزاق، والصمد، قال ابن كثير: في تفسيره عند تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة: « والحاصل أنَّ من أسمائه تعالى ما يُسمَّى به غيره، ومنها ما لا يُسمَّى به غيره، كاسم الله، والرحمن، والخالق، والرزاق، ونحو ذلك ».



١٠ - قوله: « لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحَدَّثَةً ».

الله عزَّ وجلَّ مُتَّصِفٌ بصفاته، مُتَّسِمٌ بِأَسْمَائِهِ أَزْلاً وَأَبْداً، فَلَمْ يَتَّسَمَ بِاسْمٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَيْرَ مُتَّسِمٍ بِهِ.

وَأَمَّا صِفَاتُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فَهِيَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ:

صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ قَائِمَةٌ بِالذَّاتِ، لَازِمَةٌ لَهَا أَزْلاً وَأَبْداً، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَةٍ وَإِرَادَةٍ، كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعُلُو.

وَصِفَاتٌ فَعْلِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، كَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِسْتِواءِ وَالنُّزُولِ وَالْمُجِيءِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ نَوْعُهَا قَدِيمٌ، وَآحَادُهَا حَادِثَةٌ، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَتَيْ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ أَزْلاً، لَمْ يَكُنْ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ ثُمَّ اتَّصَفَ بِهِمَا، وَالْإِسْتِواءَ عَلَى الْعَرْشِ حَصَلَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالنُّزُولَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَصَلَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُجِيءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ يَحْصُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَاتَّصَفَهُ بِكَوْنِهِ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ قَدِيمُ النَّوْعِ، وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنَ الْآحَادِ الَّتِي حَصَلَتْ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي شَاءَ اللَّهُ فَعَلَهَا فِيهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ هُوَ الْخَالِقُ، وَمَنْ سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، فَلَيْسَ فِي صِفَاتِهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، وَأَسْمَاؤُهُ لَا بَدَايَةَ لِلتَّسْمِي بِهَا، فَهِيَ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ.





١١ - قوله: «كَلَّمَ موسى بكلامه الَّذي هو صفة ذاته، لا خَلَقَ من خلقه، وَتَجَلَّى للجَبَلِ فصَارَ ذَكًّا من جلاله، وَأَنَّ القرآنَ كَلَامُ الله، ليس بمخلوق فيبيدُ، ولا صفة لمخلوق فيَنفَدُ».

اللهُ مُتَّصِفٌ بصفة الكلام أزلًا وأبدًا، وهو متكلمٌ بلا ابتداء، ويتكلم بلا انتهاء؛ لأنَّه سبحانه وتعالى لا بداية له ولا نهاية له، فلا بداية لكلامه ولا نهاية له، وصفة الكلام صفة ذاتية فعلية، فهي ذاتية باعتبار أنَّه لا بداية للاتِّصاف بها، وفعلية بكونها تتعلَّق بالمشيئة والإرادة، فكلامه متعلِّق بمشيئته، يتكلم إذا شاء، كيف شاء، وهو قديمُ النوع، حادثُ الآحاد، وقد كَلَّمَ موسى في زمانه، وكَلَّمَ نبيِّنا محمدًا ﷺ ليلة المعراج، ويكلم أهل الجنة إذا دخلوا الجنة، وهذه من أمثلة آحاد الكلام التي حصلت وتحصل في الأزمان التي شاء الله عزَّ وجلَّ حصولها فيها، والله تعالى يتكلم بحرف وصوت، ليس كلامه مخلوقًا ولا معنى قائمًا بالذات، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، ففي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ، وأنَّ كلامه سَمِعَهُ موسى منه، وقوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾ تأكيدٌ لحصول الكلام، وأنَّه منه سبحانه وتعالى، وكلام الله عزَّ وجلَّ لا بداية له ولا نهاية له، فلا حصرَ له، بخلاف كلام المخلوق، فإنَّ له بداية وله نهاية، فيكون كلامه محصورًا، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِي لَنَفَذْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْتُ بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ففي هاتين الآيتين إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ، وأنَّ كلامه غيرُ محصور؛ لأنَّ البحورَ الزاخرة ولو ضوعفت أضعافاءً مضاعفة، وكانت مدادًا يُكتبُ به كلام الله، وكان كلُّ ما في الأرض من



شجر أقلاماً يُكتبُ بها، فلا بدُّ أن تنفذَ البحورُ والأقلامُ؛ لأنَّها مخلوقةٌ محصورةٌ، ولا ينفذُ كلام الله الذي هو غير مخلوق ولا محصور، والقرآن من كلام الله، والتوراة والإنجيل من كلام الله، وكلُّ كتاب أنزله الله فهو من كلامه، وكلامه غيرُ مخلوق، فلا يحصل له الفناء الذي يحصل للمخلوقات، وهو صفة الخالق الذي لا نهاية له فلا ينفذُ كلامه، والمخلوقون يبيدون فينفذُ كلامهم.

وأما قوله: « وتجلَّى للجبل فصار دكاً من جلاله » فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾، وفي هذه الآية الكريمة إثبات حصول الكلام من الله لموسى عندما جاء لميقات ربِّه، وفيها أن موسى لمَّا سمع كلام الله طمع في الرؤية فسألها، فلم تحصل؛ لأنَّ الله شاء أن تكون رؤيته في الدار الآخرة، وهي أكملُ نعيم يحصل لأهل الجنة، وشاء أن لا تقوى الأبصارُ في هذه الحياة الدنيا على رؤيته، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ لموسى: ﴿ لَنْ تَرِنِي ۝ ﴾، أي: في الدنيا، بل إنَّ الجبلَ مع صلابته لم يثبت أمام تجلِّي الله، فصار دكاً، وأما في الدار الآخرة فإنه سبحانه وتعالى يجعل عباده المؤمنين قادرين على رؤيته؛ بما يُعطيهم من القوة على ذلك، ويدلُّ لعدم رؤية الله عزَّ وجلَّ في الدنيا قوله ﷺ: « تعلموا أنَّه لن يرى أحدٌ منكم ربَّه عزَّ وجلَّ حتى يموت » رواه مسلم (٢٩٣٠).



١٢ - قوله: «والإيمان بالقدر خيرٌ وشرُّه، حُلُوهُ ومُروءُهُ، وكلُّ ذلك قد قَدَرَهُ اللهُ رَبُّنا، ومقاديرُ الأمورِ بيده، ومصدَرُها عن قضائِهِ. عَلِمَ كلَّ شيءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾».

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيَخْذُلُهُ بَعْدَهُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَيُوقِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلُّ مَيْسَرٍ بَتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ، مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ. تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، أَوْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى خَالِقاً لِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ، رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدَّرُ لِخَرَكَاتِهِمْ وَأَجَالِهِمْ».

١ - الإيمان بالقدر أحدُ أصول الإيمان الستة المبيَّنة في حديث جبريل المشهور، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ، الَّذِي هُوَ أَوَّلُ كِتَابٍ صَحِيحِهِ، وَجَاءَ فِي إِسْنَادِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَدَّثَ بِهِ عَنْ أَبِيهِ؛ لِلإِسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، عِنْدَمَا سَأَلَهُ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَمِيرِيُّ عَنْ أَنَسٍ وَجَدُوا فِي الْعِرَاقِ يُنْكِرُونَ الْقَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَتَفُّ، فَقَالَ لِلْسَّائِلِ: «فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍَا لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، ثُمَّ حَدَّثَ بِالْحَدِيثِ عَنْ أَبِيهِ، وَحَدِيثُ جَبْرِيلَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مُسْلِمًا، وَقَدْ اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ



حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ - جاء في القرآن آيات كثيرة، وفي السنة أحاديث عديدة تدل على إثبات القدر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وقال: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وأما السنة فقد عقد كل من الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما كتاباً للقدر، اشتملاً على أحاديث عديدة في إثبات القدر، روى مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

وروى مسلم (٢٦٥٥) بإسناده إلى طاوس قال: «أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كلُّ شيء بقدر، قال: وسمعتُ عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: كلُّ شيء بقدر، حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز».

والعجز والكيس ضدان، فنشاط الشيط وكسل الكسول وعجزه، كل ذلك بقدر، قال النووي في شرح الحديث (٢٠٥/١٦): «ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه، والكيس قد قدر كيسه».

وقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، فقالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا فكل



ميسر، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٤٩٤٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٤٩٤٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ » رواه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧) من حديث عليّ رضي الله عنه.

والحديث يدل على أن أعمال العباد الصالحة مقدرة، وتؤدي إلى حصول السعادة وهي مقدرة، وأعمالهم السيئة مقدرة، وتؤدي إلى الشقاوة وهي مقدرة، والله سبحانه وتعالى قدر الأسباب والمسببات، وكل شيء لا يخرج عن قضاء الله وقدره وخلقه وإيجاده.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: « كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: يا غلام! إِنِّي أَعْلَمُكَ كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: « هذا حديث حسن صحيح ».

وهذا الحديث شرحه الحافظ ابن رجب في كتابه جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم (٤٥٩/١)، وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية.

٣ - الإيمان بالقدر له أربع مراتب لا بد من اعتقادها:

المرتبة الأولى: علم الله الأزلي في كل ما هو كائن، فإن كل كائن قد سبق به علم الله أزلاً، ولا يتجدد له علم بشيء لم يكن عالماً به أزلاً، وقد سبق إيضاح هذه المرتبة عند الكلام على صفة علم الله في الفقرة رقم (٧).



الثانية: كتابة كل ما هو كائن في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، لقوله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء» رواه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

الثالثة: مشيئة الله وإرادته، فإن كل ما هو كائن إنما حصل بمشيئة الله، ولا يقع في ملك الله إلا ما أراده الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرابعة: إيجاد كل ما هو كائن وخلقُه بمشيئة الله، وفقاً لما علمه أولاً وكتبه في اللوح المحفوظ؛ فإن كل ما هو كائن من ذوات وأفعال هو بخلق الله وإيجاده، كما قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٤ - ما قدره الله وقضاه وكتبه في اللوح المحفوظ هو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ويمكن أن يعلم الخلق ما هو مُقدَّرٌ بأحد أمرين: الأمر الأول: الوقوع، فإذا وقع شيء علم بأنه مُقدَّر؛ لأنه لو لم يُقدَّر لم يقع، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: حصول الإخبار من رسول الله ﷺ عن أمور تقع في المستقبل، مثل إخباره عن الدجال وأجوج ومأجوج ونزول عيسى بن مريم، وغيرها من الأمور التي تقع في آخر الزمان، فهذه الأخبار تدل على أن هذه الأمور لا بد أن تقع، وأنه سبق بها قضاء الله وقدره، ومثل إخباره عن أمور تقع قرب زمانه ﷺ، ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكره رضي الله عنه قال: سمعتُ



النَّبِيِّ ﷺ على المنبر، والحسن إلى جنبه، يَنْظُرُ إلى الناس مرّةً وإليه مرّةً، ويقول: «إِنِّي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» رواه البخاري (٣٧٤٦).

وقد وقع ما أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فِي عَامِ (٤١هـ) حَيْثُ اجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَسُمِّيَ عَامُ الْجَمَاعَةِ، وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ فَهَمُّوا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْحَسَنَ ﷺ لَنْ يَمُوتَ صَغِيرًا، وَأَنَّهُ سَيَعِيشُ حَتَّى يَحْصُلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الصُّلْحِ، وَهُوَ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ، عِلْمُ الصَّحَابَةِ بِهِ قَبْلَ وَقُوعِهِ.

٥ - قوله: «وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ، حُلُوهُ وَمُؤَرَّهٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ قَدَرَهُ اللَّهُ رَبُّنَا» جاء في حديث جبريل: «وَأَنْ تَوَكَّلْ بِالْقَدَرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ»، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُقَدِّرُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وَقَالَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾، فَكُلُّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَمَشِيعَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ ﷺ فِي دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الطَّوِيلِ وَفِيهِ: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» رواه مسلم (٧٧١)، فَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّرَّ لَا يَقَعُ بِقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ شَرًّا مُحَضًّا لَا يَكُونُ لِحِكْمَةٍ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ فَائِدَةٌ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَأَيْضًا الشَّرُّ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ اسْتِقْلَالًا، بَلَى يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ عَمُومٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، فَيَتَأَدَّبُ مَعَ اللَّهِ بِعَدَمِ نِسْبَةِ الشَّرِّ وَحْدَهُ إِلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِيمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنِ الْجَنِّ تَأْدِيبُهُمْ بِنِسْبَةِ الْخَيْرِ إِلَيْهِ، وَذَكَرَ الشَّرَّ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَا لَا تَذَرُنِي أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْرًا زَادَ بِهِمْ زَهُمًا رَشَدًا﴾.



٦ - من مراتب القدر الأربع كما مرَّ قريباً مشيئة الله وإرادته، والفرق بين المشيئة والإرادة أنَّ المشيئة لم تأت في الكتاب والسنة إلا بمعنى كوني قدرى، وأمَّا الإرادة فإنَّها تأتي بمعنى كوني ومعنى ديني شرعي، ومن بجيئها لمعنى كوني قدرى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

ومن بجيء الإرادة لمعنى شرعي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، والفرق بين الإرادتين أنَّ الإرادة الكونية تكون عامَّة فيما يُحبُّه الله ويسخطُّه، وأمَّا الإرادة الشرعية فلا تكون إلا فيما يُحبُّه الله ويرضاه، والكونية لا بدَّ من وقوعها، والدينية تقع في حقِّ مَنْ وفقه الله، وتخلَّف في حقِّ مَنْ لم يحصل له التوفيق من الله، وهناك كلمات تأتي لمعنى كوني وشرعي، منها القضاء، والتحريم، والإذن، والكلمات، والأمر وغيرها، ذكرها ابن القيم وذكر ما يشهد لها من القرآن والسنة في كتابه شفاء العليل، في الباب التاسع والعشرين منه.

٧ - ما قدره الله وقضاه وكتبه في اللوح المحفوظ لا بدَّ من وقوعه، ولا تغيير فيه ولا تبديل، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾، وقوله ﷻ: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

وأما قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، فقد فسَّر بأنَّ ذلك يتعلَّق بالشرائع، فينسخ الله منها ما يشاء



وُثِّبَتْ ما يشاء، حتى خُتِمت برسالة نبيِّنا محمد ﷺ، التي نَسَحَتْ جميع الشرائع قبلها، وفُسِّرَ بالأقدار التي هي في غير اللُّوح المحفوظ، كالذي يكون بأيدي الملائكة، وانظر: شفاء العليل لابن القيم، في الأبواب: الثاني والرابع والخامس والسادس، فقد ذكر في كلِّ باب تقديراً خاصاً بعد التقدير في اللُّوح المحفوظ.

وأما قوله ﷺ: « لا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدَّعَاءُ، ولا يَزِيدُ في الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ » أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٥٤)، فلا يدلُّ على تغيير ما في اللُّوح المحفوظ، وإنما يدلُّ على أن الله قَدَّرَ السَّلَامَةَ من الشرور، وقَدَّرَ أسباباً لتلك السَّلَامَةِ، والمعنى أن الله دفع عن العبد شرًّا؛ وذلك مُقَدَّرٌ بسبب يفعله وهو الدَّعَاءُ، وهو مُقَدَّرٌ، وكذلك قَدَّرَ أن يطولَ عُمرُ الإنسان، وقَدَّرَ أن يحصلَ منه سببٌ لذلك، وهو البرُّ وصلة الرَّحِمِ، فالأسبابُ والمسبباتُ كُلُّها بقضاء الله وقدره، وكذلك يُقال في قوله ﷺ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ في رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأجلُّ كلِّ إنسان مُقَدَّرٌ في اللوح المحفوظ، لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾، وكلُّ مَنْ مات أو قُتل فهو بأجله، ولا يُقال كما قال المنعرج: إِنَّ المَقْتُولَ قُطِعَ عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وأَنَّهُ لو لَمْ يُقْتَلَ لعاش إلى أجلٍ آخر؛ فإنَّ كلَّ إنسان قَدَّرَ الله له أَجلاً واحداً، وقَدَّرَ لهذا الأجل أسباباً، فهذا يموتُ بالمرض، وهذا يموت بالغرق، وهذا يموتُ بالقتل، وهكذا.



٨ - لا يجوز الاحتجاجُ بالقدر على ترك مأمور ولا على فعل محظور، فمن فعل معصية لها عقوبة محدّدة شرعاً، واعتذر عن فعله بأنّ ذلك قدر، فإنّه يُعاقبُ بالعقوبة الشرعية، ويُقال له: إنّ معاقبتك بهذه العقوبة قدرٌ، وأمّا ما جاء في حديث مُحاجة آدم وموسى في القدر، فليس من قبيل الاحتجاج بالقدر على فعل معصية، وإنّما هو على المصيبة التي كانت بسبب المعصية، فقد روى البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمرٍ قدّر عليّ قبل أن أُخلق؟ فقال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى، مرّتين.»

وقد عقد ابن القيم في كتابه شفاء العليل الباب الثالث للكلام عن هذا الحديث، فذكر ما قيل في معناه من أقوال باطلة، وذكر الآيات التي فيها احتجاجُ المشركين على شركهم بالقدر، وأنّ الله أكذبهم؛ لأنّهم باقون على شركهم وكفرهم، وما قالوه هو من الحقّ الذي أريد به باطل، ثم ذكر توجيهين لمعنى الحديث، أولهما لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، والثاني من فهمه واستنباطه، فقال (ص: ٣٥ - ٣٦): «إذا عرفتَ هذا، فموسى أعرفُ بالله وأسمائه وصفاته من أن يَلمَ على ذنب قد تاب منه فاعله، فاجتبه ربه بعده وهداه واصطفاه، وآدمُ أعرفُ بربه من أن يحتجّ بقضائه وقدره على معصيته، بل إنّما لام موسى آدم على المصيبة التي نالت الذريّة بخروجهم من الجنة، ونزولهم إلى دار الابتلاء والحنة، بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة تنبيهاً على سبب المصيبة والحنة التي نالت الذريّة، ولهذا قال له: أخرجتنا ونفسك من الجنة، وفي لفظ (خبيتنا)، فاحتج آدم بالقدر على



المصيبة، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبةً بقدره قبل خلقي، والقدر يُحتجُّ به في المصائب دون المعائب، أي: أتلومني على مصيبة قُدرت عليّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة، هذا جوابُ شيخنا رحمه الله، وقد يتوجَّه جوابُ آخر، وهو أن الاحتجاجَ بالقدر على الذنب ينفعُ في موضع ويضرُّ في موضع؛ فينفع إذا احتجَّ به بعد وقوعه والتوبة منه وترك مُعاودته، كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الربِّ وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذَّاكر والسامع؛ لأنَّه لا يدفعُ بالقدر أمراً ولا نهياً، ولا يُبطل به شريعة، بل يُخبر بالحقِّ المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوَّة، يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملتُ عملاً كان مكتوباً عليّ قبل أن أُخلَق، فإذا أذنب الرجلُ ذنباً ثم تاب منه توبةً وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأثَّبه مؤثِّبٌ عليه ولأَمه، حسنٌ منه أن يَحْتجَّ بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمرٌ كان قد قُدِّر عليّ قبل أن أُخلَق، فإنَّه لم يدفعُ بالقدر حقاً، ولا ذكر حجَّةً له على باطل، ولا محذورَ في الاحتجاج به، وأمَّا الموضع الذي يضرُّ الاحتجاجُ به ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكبَ فعلاً محرَّماً أو يترك واجباً، فيلومُه عليه لائئماً، فيحتجُّ بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيُبطل بالاحتجاج به حقاً ويرتكبُ باطلاً، كما احتجَّ به المُصرُّون على شركهم وعبادتهم غير الله، فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾، ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، فاحتجُّوا به مُصَوِّبينَ لما هم عليه، وأنَّهم لم يندموا على فعله، ولم يعزموا على تركه، ولم يُقرُّوا بفساده، فهذا ضدُّ احتجاج مَنْ تبيَّن له خطأ نفسه وندم وعزم كلَّ العزم على أن لا يعودَ، فإذا لأَمه لائئماً بعد ذلك قال: كان ما كان بقدر الله، وتُكتة المسألة أن اللومَ إذا



ارتفع صَحَّ الاحتجاجُ بالقدَر، وإذا كان اللّومُ واقعاً فالاحتجاجُ بالقدَر باطلٌ ... ».

٩ - وقوله: « تعالى أن يكونَ في مُلكه ما لا يُريد، أو يكونَ لأحدٍ عنه غنى خالقاً لكلِّ شيءٍ إلا هو، رَبُّ الْعِبَادِ وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدَّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَآجَالِهِمْ » الظاهرُ أنَّ في قوله: « خالقاً لكلِّ شيءٍ إلا هو » سقطاً يدلُّ عليه ما قبله، تقديره: « وأن يكون خالقاً لكلِّ شيءٍ إلا هو » وفي هذه الجملة كلها ردُّ على القدرية الذين يقولون: إنَّ العبادَ يَخْلُقُونَ أفعالَهُمْ، وأنَّ اللهَ لم يُقدِّرْها عليهم، فإنَّ مقتضى قولهم هذا أن أفعالَ العباد وقعت في مُلكِ الله وهو لم يُقدِّرْها، وأنَّهم بخلقهم لأفعالهم مُستغنون عن الله، وأنَّ الله ليس خالقاً لكلِّ شيءٍ، بل العباد خلقوا أفعالهم، والله سبحانه وتعالى خالقُ العباد وخالقُ أفعالِ العباد، فهو خالقُ الذوات والصفات، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ آوَجِدُ الْقَهْرُ ﴾، وقال: ﴿ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾، وقال: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ويُقابل نفاةَ القدر فرقةَ ضالَّةٍ هم الجبرية، الذين سَلَبُوا عن العبد الاختيارَ، ولم يجعلوا له مشيئةً وإرادةً، وسَوَّوا بين الحركات الاختيارية والحركات الاضطرارية، وزعموا أنَّ كلَّ حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار، وأنَّ حركةَ الأكلِ والشارب والمصلي والصائم كحركة المرتعش، ليس للإنسان فيها كسبٌ ولا إرادة، وعلى هذا فما فائدةُ إرسال الرُّسل وإنزال الكتب، ومن المعلوم قطعاً أنَّ للعبد مشيئةً وإرادةً، يُحمد على أفعاله الحسنة، ويُتاب عليها، ويُذمُّ على أفعاله السيئة ويُعاقب عليها، وأفعاله الاختيارية يُنسبُ إليه فعلُها وكسبُها، وأمَّا الحركات الاضطرارية



كحركة المرتعش فلا يُقال: إنَّها فعلٌ له، وإنَّما هي صفةٌ له، ولهذا يقول التَّحَوُّيُونَ في تعريف الفاعل: هو اسمٌ مرفوعٌ يدلُّ على مَنْ حصل منه الحَدَثُ أو قام به، ومرادهم بحصول الحَدَث: الأفعال الاختيارية التي وقعت بمشيئة العبد وإرادته، ومرادهم بقيام الحَدَث: ما لا يقع تحت المشيئة، كالموت والمرض والارتعاش ونحو ذلك، فإذا قيل: أَكَلَ زَيْدٌ وشرب وصَلَّى وصام، فزيدٌ فيها فاعلٌ حصل منه الحَدَث، الذي هو الأكل والشرب والصلاة والصيام، وإذا قيل: مرض زيدٌ أو مات زيدٌ أو ارتعشت يده، فإنَّ الحَدَثَ ليس من فعل زيد، وإنَّما هو وصفٌ قام به.

وأهل السُّنَّة والجماعة وسَطُ بين الجبرية الغلاة في الإثبات، والقدرية النفاة؛ فإنَّهم أثبتوا للعبد مشيئةً، وأثبتوا للربَّ مشيئةً عامَّةً، وجعلوا مشيئةَ العبد تابعةً لمشيئةِ الله، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُم أَن يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا يقع في مُلكِ الله ما لَمْ يشأه الله، بخلاف القدرية القائلين: إنَّ العبادَ يخلقون أفعالهم، ولا يُعاقب العباد على أشياء لا إرادة لهم فيها ولا مشيئة، كما هو قول الجبرية، وهذا يُجابُ عن السؤال الذي يتكرَّر طرْحُه، وهو: هل العبدُ مسيرٌ أو مُخَيَّرٌ؟ فلا يُقال: إنَّه مسيرٌ بإطلاق، ولا مُخَيَّرٌ بإطلاق، بل يُقال: إنَّه مُخَيَّرٌ باعتبار أنَّ له مشيئةً وإرادةً، وأعماله كسب له يُثاب على حَسَنها ويُعاقب على سيئها، وهو مسيرٌ باعتبار أنَّه لا يحصل منه شيءٌ خارجٌ عن مشيئةِ الله وإرادته وخلقه وإيجاده.

١٠ - قوله: «يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيَخْذُلُهُ بَعْدَهُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَيُؤَقِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكُلُّ مُسَيَّرٍ بِتَسْيِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ، مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ...»



هداية كل مهتد وضلال كل ضال، كل ذلك حصل بمشيئة الله وإرادته، والعباد قد بين الله لهم طريق السعادة وطريق الضلالة، وأعطاهم عقولاً يُمَيِّزُونَ بها بين النافع والضار، فمن اختار طريق السعادة فسلكه انتهى به إلى السعادة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك فضل من الله وإحسان، ومن اختار طريق الضلالة وسلكه انتهى به إلى الشقاوة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك عدل من الله سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ لَهُمْ عَيْتِينَ ۖ وَوَعَدْنَاهُمْ فِي الْكِتَابِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: طريقَي الخير والشر، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

والهداية هديتان: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه حاصلة لكل أحد، وهداية التوفيق، وهي حاصلة لمن شاء الله هدايته، ومن أدلة الهداية الأولى قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: أنك تدعو كل أحد إلى الصراط المستقيم، ومن أدلة الهداية الثانية قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقد جمع الله بين الهديتين في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي: كل أحد، فحذف المفعول لإرادة العموم، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد، وقوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أظهر المفعول لإفادة الخصوص، وهي هداية التوفيق.

وقد أورد شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الشمس حكايتين

توضّحان فسادَ مذهب المعتزلة في باب القضاء والقدر، فقال: «ولمّا تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي، قال عبد الجبار: سبحان مَنْ تَنَزَّهَ عن الفحشاء، وقصَّده أنَّ المعاصي كالسرقة والزنى بمشيئة العبد دون مشيئة الله؛ لأنَّ الله أعلَى وأجلُّ من أن يشاء القبائح في زعمهم، فقال أبو إسحاق: كلمة حقُّ أريد بها باطل، ثم قال: سبحان مَنْ لا يقع في ملكه إلّا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويُعاقِبُنِي عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أنتَ الرَّبُّ وهو العبد؟! فقال عبد الجبار: أرايتَ إن دعاني إلى الهدى، وقضى عليَّ بالردى، أتراه أحسن إليَّ أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك منه مُلكاً لك فقد أساء، وإن كان له: فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فُبِيتَ عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله! ما لهذا جواب!

وجاء أعرابيُّ إلى عمرو بن عُبيد وقال: ادعُ الله لي أن يردَّ عليَّ حمارةً سُرقت مِنِّي، فقال: اللَّهُمَّ إِنَّ حمارته سُرقت وَلَمْ تُردَّ سرقتهَا فاردِّدهَا عليه، فقال الأعرابيُّ: يا هذا! كُفَّ عَنِّي دُعَاؤُكَ الخبيث؛ إن كانت سُرقت وَلَمْ يُردَّ سرقتهَا، فقد يريد رَدَّهَا وَلَا تُردُّ».

١٣ - قوله: «الباعثُ الرُّسل إليهم لإقامة الحُجَّة عليهم».

١ - أعظمُ نعم الله على عباده أن أرسل إليهم رسلاً وأنزل كتباً؛ لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم، وإقامة الحُجَّة عليهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا



مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۖ وَقَالَ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۖ﴾ ، وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ، وقال: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ .

٢ - الإيمان بالرُّسل من أصول الإيمان، وكذا الإيمان بالكتب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ۖ﴾ ، وقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۖ﴾ ، وقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ ، وفي حديث جبريل المشهور أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تَوَافَّقَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» وهو في صحيح مسلم من حديث عمر رضي الله عنه.

٣ - رسل الله عزَّ وجلَّ وجلَّ منهم مَنْ قَصَّهَمَ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصُصْ، قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۖ وَجَمَلَةُ الَّذِينَ قَصَصْنَا عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعَشْرُونَ، جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةٌ عَشْرٌ مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۚ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٧﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنْ

الصِّلِحِينَ ﴿٥٥﴾ وَاسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ والباقون: محمد وآدم وهود وشعيب وصالح وذو الكفل
وإدريس.

والواجب هو الإيمان بالرُّسل والأنبياء جميعاً مَنْ قُصَّ وَمَنْ لَمْ يُقْصَ،
وَمَنْ كَذَّبَ واحداً منهم فقد كَذَّبَ جميعهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾،
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لُؤْلُؤٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، فقد
كَذَّبَتْ كُلُّ أُمَّةٍ رُسُلَهَا، وأضاف إليها تكذيب المرسلين؛ لأنَّ تكذيب
واحد منهم تكذيبٌ لجميعهم، وَمَنْ آمَنَ برَسُولٍ وكَذَّبَ بغيره فهو مُكَذِّبٌ
بذلك الرسول الذي يزعم أنه آمن به.

٤ - وأما الفرق بين النَّبِيِّ والرسول فقد اشتهر أنَّ النَّبِيَّ هو مَنْ أُوحِيَ
إليه بشرع ولم يُؤَمَّرْ بتبليغه، والرسولَ هو مَنْ أُوحِيَ إليه بشرع وأُمِرَ
بتبليغه، لكن هذا التفريق قد جاء في بعض الأدلَّة ما يدلُّ على عدم صحَّته،
قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، وذلك
يدلُّ على أنَّ النَّبِيَّ مرسلٌ مأمورٌ بالتبليغ، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ نَحْكُمُ بِهَا النَّبِيِّونَ الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ
وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، الآية، فهذه
الآية تدلُّ على أنَّ أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى يحكمون بالتوراة
ويدعون إليها، وعلى هذا فيمكن أن يُقال في الفرق بين الرسول والنَّبِيَّ:
إنَّ الرَّسُولَ مَنْ أُوحِيَ إليه بشرع وأنزل عليه كتاب، والنَّبِيَّ هو الذي
أُوحِيَ إليه بأن يُبلِّغ رسالةً سابقة، وهذا هو المتَّفَق مع الأدلَّة، لكن يبقى



عليه إشكال، وهو أن من المرسلين مَنْ وُصف بأنه نبيُّ رسول، كما قال الله عزَّ وجلَّ في نبينا محمد ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ يَلْغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، وقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ﴾، وقال في موسى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، وقال في إسماعيل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إسماعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، ونبينا محمد ﷺ نَزَلَ عليه الوحي أولاً ولم يُؤمر بالتبليغ، ثم أمر بعد ذلك بالتبليغ بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قَدْ فَأَنذِرْ﴾، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في الأصول الثلاثة: «نُبئ بـ ﴿أَقْرَأْ﴾، وأُرسِل بـ ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾»، وعلى هذا فيقال: النَّبِيُّ مَنْ أُوحي إليه ولم يُؤمر بالتبليغ في وقت ما، أو أمر بأن يبلغ شريعة سابقة.

١٤ - قوله: «ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ وَالتَّبُوءَةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ، فَجَعَلَهُ آخِرَ المرسلين، بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وداعياً إلى الله يَازِنُهُ وَسِرَاجاً مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

أعظمُ نعمة أنعم الله تعالى بها على الجنِّ والإنس في آخر الزمان أن بعث فيهم رسوله الكريم محمداً ﷺ، فدلَّهم على كلِّ خير، وحذَّره من كلِّ شرٍّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِمْ وَنَزَّلَ فِيهِمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

كَفَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وقال: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَذُكِّرُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿٢﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُفْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْإِسْلَامِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ عَذَابِ الْإِيمِرِ ﴿٥﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

وأمة نبينا محمد ﷺ أمة دعوة وأمة إجابة، فأمة الدعوة كل إنسي وجني من حين بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، وأمة الإجابة هم الذين وفقهم الله للدخول في دينه الخفيف، فشريعته ﷺ لازمة للجن والإنس، والدعوة إليها موجهة لهم جميعاً، ليست لأحد دون أحد، بل هي للجميع، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم (٢٤٠).

فاليهود والنصارى بعد بعثة نبينا محمد ﷺ، لا ينفَعُهُم زعمُهُم أَنَّهُم أتباعُ موسى وعيسى، بل يتعيَّنُ عليهم الإيمانُ بنبينا محمد ﷺ، الذي نسخت شريعته الشرائعَ قبلها، وختم به النبيون، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا

وقوله: « وهدى به الصراط المستقيم »، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، وقال الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فسيل الهداية مقصور على اتباع النبي ﷺ، ولا يُعبد الله إلا بما جاء به رسوله الكريم ﷺ، ولا طريق يُوصل إلى الله إلا باتباع ما جاء به ﷺ.



وحاجة المسلم إلى الهداية إلى الصراط المستقيم أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعام والشراب زادُه في الحياة الدنيا، والصراط المستقيم زادُه للدار الآخرة، ولهذا جاء الدعاء لطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة، التي تجب قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة، سواء كانت فريضة أو نافلة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾، فالمسلم يدعو بهذا الدعاء باستمرار ليهديه ربُّه صراط المنعم عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وأن يُجنِّبه طريق المغضوب عليهم والضالِّين، من اليهود والنصارى وغيرهم من أعداء الدِّين. وهداية النبي ﷺ الجنَّ والإنسَ إلى الصراط المستقيم هو النور الذي وصفه الله عزَّ وجلَّ به في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝﴾، فقد وصفه الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية بأنَّه سراج منير، يُضيء به للعباد الطريق إليه سبحانه وتعالى، وهذا أيضاً هو معنى النور الذي وصف به القرآن في قوله: ﴿فَقَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۝﴾، فنور القرآن ما اشتمل عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم.



١٥ - قوله: « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يَعُودُونَ ».

١ - علمُ قيام الساعة اختصَّ به الله عزَّ وجلَّ، ففي صحيح البخاري (٤٦٩٧) أن رسول الله ﷺ قال: « مفاتيحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله »، وآخرها: « ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ».



وكان ﷺ عندما يُسأل عنها يُحِيب بذكر بعض أماراتها، فلا يَعْلَمُ أحدٌ غير الله في أيِّ سنة وفي أيِّ شهر وفي أيِّ يوم من الشهر يكون قيامها، وقد جاء في السُّنة عن الرسول ﷺ أنَّها تقوم يوم الجمعة، قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدْخِلَ الْجَنَّةُ، وفيه أُخْرِجَ منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» رواه مسلم (٨٥٤).

٢ - والساعة تُطْلَقُ ويُراد بها الموت عند النفخ في الصور، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» رواه مسلم (٢٩٤٩) وكلُّ مَنْ مات قبل ذلك فقد جاءت ساعته وقامت قيامته، وانتقل من دار العمل إلى دار الجزاء.

وتُطْلَقُ ويُرادُ بها البعث، كما قال الله عزَّ وجلَّ في آل فرعون: ﴿الْأَرْسُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَنَبِيٌّ لِّتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وهم إنَّما أنكروا البعث كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَنَبِيٌّ لِّتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٣ - قوله: «وأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كما بدأهم يعودون»، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، وقد نصَّ في هذه الآية على بعث مَنْ في القبور؛ إذ الغالب على الناس أنَّهم يُدفنون في القبور،



والبعث يكون لكل من مات قَبْرًا أو لم يُقْبَرْ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وعبارة المؤلف: «وأنَّ الله يبعث من يموت» تشمل كل من مات قَبْرًا أو لم يُقْبَرْ، ولعلَّه اختار هذه العبارة لشمولها.

٤ - كثيراً ما يأتي في القرآن تقريرُ أمر البعث ببيان ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التنبيهُ بخلق الإنسان أوَّلَ مرَّة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (١) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٢) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٣)، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٤) وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (٦)، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧)، وقال: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ (٨)، وقال تعالى: ﴿أَتُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٩) أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَنًى يَمْنَىٰ (١٠) ثُمَّ كَانَ عِلَاقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (١١) فَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (١٢) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ تَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (١٣).

الأمر الثاني: التنبيه بإحياء الأرض بعد موتها، قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ (١٤) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٥)﴾



شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٢﴾
 وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
 الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ﴾، وقال: ﴿يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيَخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَلَمْ يُحْيِ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾، وقال عزَّ
 وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٣﴾
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٤﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا
 كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ يَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾،
 وقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

الأمر الثالث: التنبيه بخلق السموات والأرض وهو أعظم من خلق
 الناس، قال الله عزَّ وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَى بَلَى
 إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، وقال تعالى:
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَاَلَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا كُفُورًا﴾، وقال: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ
 خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ الآيات.



٥ - البعثُ يوم القيامة يكون بإعادة الأجساد التي كانت في الدنيا لتلقى مع الأرواح الثواب والعقاب، وليس لأجساد جديدة لم تكن موجودة في الدنيا، وهذا هو الذي استبعده الكفار وأنكروه، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۚ ۞ أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۚ ۞ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ۚ ۞ فَبَيْنَ سُبْحَانِهِ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَاتِ أَجْسَادِهِمُ الَّتِي تَنْقُصُهَا الْأَرْضُ مِنْهُمْ، فُيَعِيدُهَا كَمَا كَانَتْ فَيَبْعَثُ ذَلِكَ الْمَيِّتَ بِجَسَدِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۚ ۞، والمعنى كما ذكر ابن كثير عن جماعة من السلف أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قطع الطيور الأربعة وخلط لحومها، وجعل على كل رأس جبل منها قطعة، ثم دعاها فاجتمعت أجزاء كل طائر، حتى عادت الطيور على ما كانت عليه، وأتت إليه سعيًا.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۚ ۞ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ۞ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُنَا لَمْ نَسْهَدْكُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۚ ۞ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۚ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسُفِينَ ۚ ۞، وهذه الآيات تدلُّ على أن الأجساد التي في الدنيا هي التي أُعيدت وشهدت



الأسماع والأبصار والجلود بالمعاصي التي عملها أصحابها.

ومثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويدل على ذلك من السنة حديث قصّة الرجل الذي أوصى بنيه إذا مات أن يحرقوا جسده ويرموا جزءاً من رماده في البرّ وجزءاً منه في البحر، فأمر الله عز وجل البحر بأن يخرج ما فيه، والبرّ بأن يخرج ما فيه، حتى عاد الجسد كما كان، والحديث رواه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٦ - قوله: « وأن الله سبحانه وتعالى ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».

١ - من فضل الله عز وجل على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات، ومن عدله أنه يحزي علي السيئة مثلها، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعِ يَوْمِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (١) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿مَثَلُ



الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُتْبِتَتْ سَبْعَ سِتَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، وقال : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » ، وقال ﷺ : « كلُّ عمل ابن آدم يُضاعف ؛ الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عزَّ وجلَّ : إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ... » الحديث ، رواه مسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النَّبِيِّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ ».

ومن فضل الله وإحسانه أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ يَعْمَلُ أَعْمَالًا صَالِحَةً ، وَشَغْلُهُ عَنْهَا مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ فِي حَالِ سَفَرِهِ وَمَرَضِهِ مِثْلَ مَا كَتَبَ لَهُ فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَإِقَامَتِهِ ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : « إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا » رواه البخاري (٢٩٩٦) عن أبي موسى رضي الله عنه.

٢ - الفرقُ بين الكبيرة والصغيرة ، أَنَّ الْكَبِيرَةَ هِيَ مَا جُعِلَ لَهُ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ تَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِلَعْنَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ أَوْ حَبْوَطٍ عَمَلٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَالصَّغِيرَةُ مَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ.



والكبائر تُكفرُها التوبة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾.

وللتوبة النصوح شروط ثلاثة:

الأول: أن يُقْلَعَ عن الذنب بأن يتركه ويتعد عنه.

الثاني: أن يندم على ما مضى من فعل الذنب.

الثالث: أن يعقد العزم على أن لا يعود إليه.

وإذا كان الذنب يتعلق بحقوق الآدميين فيُضاف إلى ما تقدّم شرط رابع، وهو أن يردَّ الحقوق إلى أهلها إن كانت أموالاً، أو يستبيحهم منها إذا كانت غيبة لهم أو كذباً عليهم، ونحو ذلك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، والآية تدلُّ على أن الكفر وهو أعظم الذنوب يغفره الله بالتوبة منه، والانتهاؤه عنه، وكلُّ الذنوب دون هذا الذنب فهي أولى بالمغفرة إذا تيب منها.

والكبيرة إذا كان لها حدٌّ في الدنيا وأقيم على من ارتكبها، كان ذلك كفارةً له؛ لأنَّ إقامة الحدود عند أهل السنَّة والجماعة فيها جبر النَّقص، وفيها أيضاً الزَّجر لمن أقيم عليه الحد وغيره عن فعل تلك الكبيرة، ويدلُّ



لذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله قال وحوله عصابة من أصحابه: « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك » رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

٣ - الصغائر تُكفرُ بالأعمال الصالحة وباجتناب الكبائر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ ۝ ﴾

وروى مسلم في صحيحه (٢٢٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله ».

وروى مسلم أيضاً (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ».

والصغيرة تضخم وتعظم إذا أصرَّ عليها، والكبيرة تتضاءل وتتلاشى إذا ندم على فعلها، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: « لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار ».

٤ - إذا مات المسلم مرتكباً كبيرة ولم يُتَّب منها، فإنَّ أمره إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنِ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ ۝ ﴾



أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝، وقال: ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۝ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝، وقال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت الذي تقدّم قريبا: «... وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ».

١٧ - قوله: « وَمَنْ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝، وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ ».

مَنْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً وَتَابَ مِنْهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً وَمَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۝، وَالَّذِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ صُنْفَانَ:

أَحَدُهُمَا: الْكَافَرُ، وَهَؤُلَاءِ يَبْقَوْنَ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبَادِ، لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ۝ إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝، وقال: ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۝.

والصنف الثاني: مسلمون عُصَاةٌ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ عَذَّبُوا فِيهَا عَلَى قَدَرِ جُرْمِهِمْ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مِنْهَا بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ



مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ أَوْ الْحَيَاءِ، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟» رواه البخاري (٢٢) ومسلم (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (٣٣٨) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأحاديثُ الشفاعةِ في خروجِ العصاةِ من النارِ متواترةٌ، وأمَّا ما جاء من ذكرِ الخلودِ في النارِ لبعضِ العصاةِ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وكما في قوله ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» رواه البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فإنَّ ذلكَ الخلودَ خلودٌ نسبيٌّ، يُرَادُ بِهِ طَوْلُ الْبَقَاءِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَخُلُودِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَبْقَوْنَ فِي النَّارِ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ دُونَ الشِّرْكِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.



١٨ - قوله: « وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، وهي التي أهبط منها آدَمَ نبيه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَن كَفَرَ بِهِ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ، وجعلهم مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْهِ ».

١ - الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، أَعَدَّ اللَّهُ الجنة لأوليائه، وأَعَدَّ النار لأعدائه، فمن الآيات التي فيها إعداد الجنة لأوليائه قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُواهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أُولَئِكَ الْفَائِزُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُوا لَهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أُولَئِكَ الْكَافِرُونَ وَالَّذِينَ تَبَعُوا لَهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ أُولَئِكَ الْمَضْمُونُونَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ الْمَذْمُونُونَ ﴾ وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، وقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾.

ومن الآيات التي فيها إعداد النار لأعدائه قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنٍّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾، ويدل من السنة لكون الجنة والنار موجودتين الآن حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صلاة الكسوف، وفيه: « قالوا: يا رسول الله! رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك كعككت، قال ﷺ: إني رأيت الجنة، فتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلت من ما بقيت الدنيا، وأريت النار، فلم أر منظرا كالיום



قطُ أفطع، ورأيتُ أكثرَ أهلها النساء ... » الحديث، رواه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

وأما ما جاء عن بعض المبتدعة كالمعتزلة من أنَّهما لا تُخلقان إلا يوم القيامة؛ لأنَّ خلقَهما قبل ذلك عبثٌ، حيث إنَّهما بقيان مدَّة طويلة دون أن ينتفع بالجنة أحدٌ ودون أن يتضرَّر بالنار أحد؛ فذلك قولٌ باطل، ويدلُّ لبطلانه وجوه:

الأول: ما جاء في الآيات والأحاديث الدالة على خَلْقِهما ووجودهما قبل يوم القيامة، ومن ذلك ما تقدَّم قريباً.

الثاني: أن وجود الجنة فيه ترغيبٌ بها وتشويقٌ إليها، ووجود النار فيه تحذيرٌ منها وتخويف.

الثالث: أنه قد جاء في نصوص الكتاب والسنة ما يدلُّ على حصول الانتفاع بنعيم الجنة قبل يوم القيامة، وما يدلُّ على التضرُّر بعذاب النار قبل يوم القيامة، قال الله عزَّ وجلَّ في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، فالآية تدلُّ على أنَّهم يُعَذَّبون في النار وهم في قبورهم، وإذا حصل البعث انتقلوا إلى عذاب أشدَّ.

وأما الجنة فقد جاء في الحديث أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، رواه مسلم (١٨٨٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وروى الإمام أحمد في مسنده (١٥٧٧٨) عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ



الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه»، وهو حديث صحيح، في إسناده ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة لأهل السنة، قال الإمام ابن كثير في تفسيره عند قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: «وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة» ثم ذكر سند الحديث ومتمه.

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في موعظته رضي الله عنه عند القبر الذي يلحد، قال في المؤمن: «فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّاً بصره»، وقال في الكافر: «فأفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه»، وهو حديث حسن، رواه أحمد في مسنده (١٨٥٣٤).

والأحاديث في عذاب القبر والاستعاذة بالله منه كثيرة، وهذه الأدلة تدلُّ على أن المؤمنين يُنعمون في قبورهم، والكافرين يُعذبون فيها، والنعم والعذاب يكون للأرواح والأجساد.

٢ - الجنة والنار باقيتان لا تفنيان ولا تبيدان، وأهل الجنة منعمون فيها إلى غير نهاية، والكفار مُعذبون في النار إلى غير نهاية، ومن الآيات التي جاءت في بقاء الجنة وخلود أهلها فيها قول الله عز وجل: ﴿وَنَبِّئِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا



وَلَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٢﴾ أَذْخَلُوهَا وَسَلِّمَ ءَامِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٠٤﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿١٠٥﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ حَاشَىٰ رَبُّهُ﴾.

ومن الآيات التي جاءت في بقاء النار وخلود الكفار فيها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفَاتِنَتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشُّفَعَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٠٦﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَنْ لَّهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

وبقاء الجنة والنار وخلود أهلها فيهما إلى غير نهاية لا يُنافي كون الله عزَّ وجلَّ الآخر الذي ليس بعده شيء؛ لأنَّ بقاء الله عزَّ وجلَّ لازمٌ لذاته،



وبقاء الجنة والنار وأهلها فيهما حصل بإبقاء الله لهما، وليس لهما إلا الفناء لولا إبقاء الله لهما، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قول المؤلف: « ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء ».

٣ - قوله: « وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه، بما سبق في سابق علمه »، هذا أحد أقوال ثلاثة في المراد بالجنة التي أهبط منها آدم إلى الأرض، وهو أظهرها.

والقول الثاني: أنها جنة في مكان عال من الأرض.

والقول الثالث: التوقف.

وقد ذكر ابن القيم الخلاف وأدلة أصحاب القول الأول والثاني، وإجابة كل منهما عما استدلل به الآخر، ولم يرجح شيئاً، وذلك في كتابه حادي الأرواح (ص: ١٦ - ٣٢)، وفي قصيدته الميمية ما يدل على ترجيحه القول الأول، حيث قال:

فحيّ عل جنّات عدن فإثّها منازل الأولى وفيها المخيم
ولكنّا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

٤ - رؤية المؤمنين ربهم بأبصارهم في الدار الآخرة، هي أكبر نعيم يحصل لهم في دار النعيم، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، فمن أدلة الكتاب قول الله عز وجل: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۖ ﴾، وقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُوبُونَ ۖ ﴾، قال الشافعي رحمه الله: « لَمَّا حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي حَالِ السُّخْطِ، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ فِي حَالِ الرِّضَى »، وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل، فسرها بذلك رسول الله



ﷺ، كما في صحيح مسلم (٢٩٧) عن صُهَيْب رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: أَلَمْ تَبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطُوا شيئاً أَحَبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ، ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾».

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وهو يدلُّ على إثبات الرؤية بدون إدراك، فهو يُرى ولا يُدرك، أي: لا يُحاطُ به رؤيةً، كما أنَّه يُعلم ولا يُحاطُ به علماً، ونفي الإدراك وهو أخصُّ، لا يستلزم نفي الرؤية وهي أعمُّ.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أُنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنِ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَبِقًا﴾، وموسى عليه الصلاة والسلام سأل الله أمراً مُمكنًا، ولم يسأله مستحيلاً، والله عزَّ وجلَّ شاء ألا يُرى إلا في الدار الآخرة؛ لأنَّ رؤيته أكملُ نعيم يكون فيها، وقوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، أي: في الدنيا.

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - هذه الأدلة من الكتاب وغيرها في كتاب حادي الأرواح (ص: ١٧٩ - ١٨٦)، ثم ذكر الأدلة من السنة عن سبعة وعشرين صحابياً، وساق أحاديثهم، ثم ذكر الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة، وهي تدلُّ على الاتفاق والإجماع على ذلك من الصحابة ومن سار على طريقتهم.





١٩ - قوله: « وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا؛ لَعَرْضِ الْأُمَمِ وَحَسَابِهَا وَعُقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتَوْضُعِ الْمَوَازِينُ لَوَظْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَيُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصَلُّونَ سَعِيرًا ».

١ - يجيء الله عز وجل يوم القيامة لفصل القضاء من صفات أفعاله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والقول في المجيء كالقول في سائر الصفات، أنه على ما يليق بالله، من غير تكليف أو تمثيل، ومن غير تأويل أو تعطيل، قال الله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ﴾، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: « يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي التوبة إلى محمد ﷺ، فيقول: أنا لها، أنا لها، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا ».

وأولو العزم من الرسل المستشفع بهم قبل نبينا محمد ﷺ هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهم المذكورون في سورتي الأحزاب والشورى، في قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾، وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا



وَصَبَّيْنَا بِمَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ

٢ - يُعَرِّضُ الْعِبَادَ عَلَى اللَّهِ فَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعَرِّضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ نَحْصِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا ۖ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تُخْفَىٰ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ ۖ﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ۖ﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿فِي حَبْطٍ عَلِيلَةٍ ۖ﴾ فَطَوَّفَهَا دَانِيَةً ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَةَ ۖ﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۖ﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿خَذُوهُ فَعُوهُ ۖ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۚ﴾، وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّمَوَا أَعْمَالِهِمْ ۖ﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَوَسِبَ عَذْبٌ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَسَوْفَ نَحْصِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا ۚ﴾، قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ مَنْ تُوقَشِ الْحِسَابَ يَهْلِكُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٠٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٧٦).



٣ - تُحْصَى أَعْمَالُ الْعِبَادِ ثُمَّ تُوزَنُ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ نَجَا، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ هَلَكَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٣)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٦٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٩٤).

وَالْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَاضاً فَاللَّهُ يَجْعَلُهَا أَجْسَاماً تَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ وَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ إِظْهَارُ عَدْلِ اللَّهِ وَإِقَافُ الْعَبْدِ عَلَى أَعْمَالِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَالْوَزْنُ كَمَا يَكُونُ لِلْأَعْمَالِ يَكُونُ لَصِحَافِ الْأَعْمَالِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبُطَاقَةِ وَالسَّجَّالَاتِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا



من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصر، ثمَّ يقول: أأنكرُ من هذا شيئاً؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربَّ! فيقول: أفلَّك عُذر؟ فيقول: لا يا ربَّ! فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة، فإنَّه لا ظُلمَ عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسوله، فيقول: احضُر وزنك، فيقول: يا ربَّ! ما هذه البطاقة أمام السجلات؟ فقال: إنَّك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقلُ مع اسم الله شيء « أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، والحاكم (٦/١) وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٣٥).



٢٠ - قوله: « وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِثُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ ».

الصِّرَاطُ حَقٌّ ثَابِتٌ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وهو جسرٌ منصوبٌ على متن جهنم، يمرُّ عليه المسلمون للوصول إلى الجنة على قدر أعمالهم، فمنهم مَنْ يَمُرُّ كالبرق، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالريح، ومنهم مَنْ يَزحف زحفاً، ففي صحيح البخاري (٨٠٦)، ومسلم (٢٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: « فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَرْسَدُ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ



سَلَّمَ سَلَّمَ، وفي جهنَّم كلاليب مثل شوك السَّعدان، هل رأيْتُم شوك السَّعدان؟ قالوا: نعم، قال: فإنَّها مثل شوك السَّعدان، غير أنَّه لا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِها إلاَّ اللهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوقِ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرِّدَلْ ثُمَّ يَنْجُو».

وفي صحيح مسلم (٣٢٩) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، وفيه: «وُتِّسِلُ الأمانةُ والرَّحْمُ، فتقومان جنبتي الصَّراطِ يميناً وشمالاً، وَيَمُرُّ أَوْلُكُمْ كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأُمِّي! أيُّ شيء كَمَرَّ البرق؟ قال: أَوَلَمْ تَرَوْا إلى البرق كيف يَمُرُّ ويرجع في طرفة عين؟ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحُ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرُ وشَدَّ الرِّجَالُ، تجري بهم أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قائمٌ على الصَّراطِ يقول: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ! حتَّى تعجز أَعْمَالُ العبادِ، حتَّى يجيء الرَّجُلُ فلا يستطيع السَّيرَ إلاَّ زحفاً، قال: وفي حافتي الصَّراطِ كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمُخْدُوشٌ نَاجٍ، ومُكْدُوسٌ في النَّارِ».

وفي صحيح مسلم (٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «ثُمَّ يُضْرَبُ الجَسْرُ على جهنَّم وتَحُلُّ الشِّفَاعَةُ، ويقولون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، قيل: يا رسول الله! وما الجسرُ؟ قال: دَحَضُ مَزَلَّةٍ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ، تكون بَنَاجِدٍ فيها شَوَيْكَةٌ يُقال لها السَّعدان، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ العَيْنِ، وكالبرق، وكالرَّيحِ، وكالطَّيْرِ، وكأجاويد الخيل والرَّكَّابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، ومُخْدُوشٌ مَرْسَلٌ، ومُكْدُوسٌ في نار جهنَّم».





٢١ - قوله: « والإيمان بحوض رسول الله ﷺ، تَرْدُهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ، وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيْرَ ».

أحاديثُ حوض نبيِّنا ﷺ متواترةٌ عن رسول الله ﷺ، أورد البخاري رحمه الله - في باب: في الحوض، من كتاب الرقاق من صحيحه منها تسعة عشر طريقاً من (٦٥٧٥ - ٦٥٩٣)، وذكر الحافظ في الفتح أنَّ الصحابةَ فيها يزيدون على خمسين صحابياً، ذكر خمسة وعشرين منهم نقلاً عن القاضي عياض، وثلاثة نقلاً عن النووي، وزاد عليهما قريباً من ذلك، فرادوا على الخمسين صحابياً (٤٦٨/١١ - ٤٦٩)، وأورد الإمام ابن كثير في كتاب النهاية أحاديث الحوض عن أكثر من ثلاثين صحابياً (٢٩/٢ - ٦٥)، ذكرها بأسانيد الأئمة الذين خرَّجوها غالباً.

وممَّا جاء في صفة حوض النَّبِيِّ ﷺ قوله ﷺ: « حَوْضِي مسيرة شهر، ماؤه أبيضُ من اللبن، وريحه أطيبُ من المسك، وكيزائه كنجوم السماء، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَداً » رواه البخاري (٦٥٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورواه مسلمٌ في صحيحه (٢٢٩٢) ولفظه: « حَوْضِي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيضُ من الورد، وريحه أطيب من المسك، وكيزائه كنجوم السماء، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَداً ».

وفي صحيح مسلم (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر الرَّضِيِّ، وفيه: « يشحبُ فيه ميزابان من الجنة، من شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل ».

ومن الناس مَنْ يُذَادُ عن ورود الحوض، فقد روى البخاري في صحيحه (٦٥٧٦) عن ابن مسعود الرَّضِيِّ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: « أَنَا فَرَطُكُمْ



على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

والمراد بهؤلاء الأصحاب أناس قليلون ارتدوا بعد موت النبي ﷺ، وقتلوا على أيدي الجيوش المظفرة التي بعثها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقتال المرتدين.

والرافضة الحاقدون على الصحابة تزعم أن الصحابة ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ إلا نفراً يسيراً منهم، وأنهم يذادون عن الحوض، والحقيقة أن الرافضة هم الجديرون بالدود عن حوض رسول الله ﷺ؛ لأنهم لا يغسلون أرجلهم في الوضوء، بل يمسحون عليها، وقد قال رسول الله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار» أخرجه البخاري (١٦٥) ومسلم (٢٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وليست فيهم سيما التحجيل التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» أخرجه البخاري (١٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد نبت في هذا الزمان نابتة يزعم أنه من أهل السنة وهو ليس منهم، بل هو على طريقة الرافضة الحاقدين على الصحابة، وهو حسن بن فرحان المالكي، نسبة إلى بني مالك في أقصى جنوب المملكة، وقد كتب رسالة سيئة بعنوان: «الصحابة بين الصحبة اللغوية والصحبة الشرعية» زعم فيها أن الصحابة هم المهاجرون والأنصار قبل الحديبية فقط، وأن كل من أسلم وهاجر بعد الحديبية أنه ليس له نصيب في الصحبة الشرعية، وأن صحبتهم كصحبة المنافقين والكفار، فأخرج بذلك الكثيرين من أصحاب رسول الله ﷺ وفي مقدمتهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وابنه



عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، رضي الله تعالى عنه وعن أبيه وعن الصحابة أجمعين، كما أخرج أبا موسى الأشعري وأبا هريرة وخالد ابن الوليد وغيرهم ممن لا يُحصون، وهو قولٌ مُحدث في القرن الخامس عشر، لم يسبقه إليه إلا شابٌ حديث السن مثله اسمه عبد الرحمن بن محمد الحكمي، ومِمَّا جاء في كتابه السيء إنكارُ القول بعدالة الصحابة، وزعمه أن أكثر الصحابة يُزادون عن حوض الرسول ﷺ، وأنه يُؤمرُ بهم إلى النار، وأنه لا ينجو منهم إلا القليل مثل همل النعم، وبهذا يتبين مُماثلته للرافضة الحاقدين على الصحابة، وقد رددتُ عليه في كتاب بعنوان: « الانتصار للصحابة الأختيار في ردّ أباطيل حسن المالكي ».

ومِمَّا جاء في الكتاب ممَّا يتعلق بالذود عن الحوض ما يلي:

السابع: (أي من وجوه الردّ عليه في إنكاره عدالة الصحابة) قوله (ص: ٦٣): « ومن الأحاديث في الذمّ العامّ: قول النبي ﷺ في أحاديث الحوض في ذهاب أفواج من أصحابه إلى النار، فيقول النبي ﷺ: (أصحابي! أصحابي! فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك)، الحديث متفق عليه، وفي بعض ألفاظه في البخاري: (فلا أرى ينجو منكم إلا مثل همل النعم). فيأتي المعارض للثناء العام بهذا الذمّ العامّ، ويقول: كيف تجعلون للصحابة ميزة وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا ينجو منهم إلا القليل، وأن البقية يؤخذون إلى النار؟! ».

وقال عن هذا الحديث أيضاً (ص: ٦٤): « كما أخبر النبي ﷺ أنه لا ينجو من أصحابه يوم القيامة إلا القليل (مثل همل النعم)، كما ثبت في صحيح البخاري - كتاب الرقاق ».



وَيُجَابُ عَنْهُ بِأَنَّ لَفْظَ الْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الرِّقَاقِ (٦٥٨٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فَإِذَا زَمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: هَلَمْ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ! قُلْتُ: وَمَاشَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، ثُمَّ إِذَا زَمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: هَلَمْ، قُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ! قُلْتُ: مَاشَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، فَلَا أُرَاهُ يُخْلَصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمْلِ النِّعَمِ».

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ: «قَوْلُهُ: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ) كَذَا بِالنُّونِ لِلْأَكْثَرِ، وَلِلْكَشْمِيهِنِ (قَائِمٌ) بِالْقَافِ، وَهُوَ أَوْجَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ قِيَامُهُ عَلَى الْحَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَوَجُّهُ الْأَوَّلَى بِأَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ فِي الدُّنْيَا مَا سَيَقَعُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ»، وَقَالَ أَيْضًا: «قَوْلُهُ: (فَلَا أُرَاهُ يُخْلَصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمْلِ النِّعَمِ) يَعْنِي مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَنَوْا مِنَ الْحَوْضِ وَكَادُوا يَرِدُونَهُ فَصُدُّوا عَنْهُ»، وَقَالَ أَيْضًا: «وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَرِدُهُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ؛ لِأَنَّ الْهَمْلَ فِي الْإِبِلِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لغيره».

وَاللَّفْظُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «فَلَا أُرَاهُ يُخْلَصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمْلِ النِّعَمِ» أَيُّ مِنَ الزَّمْرَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ عُرِضُوا عَلَيْهِ هَاتَانِ الزَّمْرَتَانِ فَقَطْ، وَالْمَالِكِيُّ أَوْرَدَ لَفْظَ الْحَدِيثِ عَلَى لَفْظِ خَاطِئٍ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَدِيثِ، وَبَنَاءً عَلَيْهِ حُكْمٌ عَلَى الصَّحَابَةِ حُكْمًا عَامًّا خَاطِئًا، فَقَالَ فِيهِ: «وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ فِي الْبُخَارِيِّ: (فَلَا أُرَى يَنْجُو مِنْكُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمْلِ النِّعَمِ)، فَجَاءَ بِلَفْظِ «مِنْكُمْ» عَلَى الْخَطَابِ بَدَلُ «مِنْهُمْ»، وَبَنَاءً عَلَيْهِ قَالَ: «كَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلصَّحَابَةِ مِيزَةً وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ



ﷺ أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَأَنَّ الْبَقِيَّةَ يُؤْخَذُونَ إِلَى النَّارِ»، وَقَالَ: «كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ (مِثْلُ هَمَلِ النَّعْمِ)، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - كِتَابُ الرِّقَاقِ!!»، وَهَذَا كَذِبٌ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْ أَنَّ أَصْحَابَهُ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَعَلَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ مِنَ الْمَالِكِيِّ حَصَلَ خَطَأً لَا عَمْدًا.

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنْ أَنَّهُ يُذَادُ عَنْ حَوْضِهِ أَנَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَنَّهُ يَقُولُ «أَصْحَابِي!» وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَافِ «أَصْحَابِي!»، فَيُقَالُ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»، فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَلَّةِ الَّتِي ارْتَدَّتْ مِنْهُمْ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقُتِلُوا فِي رَدِّتِهِمْ عَلَى أَيْدِي الْجِيُوشِ الْمَظْفَرَةِ الَّتِي بَعَثَهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وَأَقُولُ: إِذَا كَانَ مَصِيرُ أَكْثَرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّارِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ: مِثْلُ هَمَلِ النَّعْمِ بِزَعْمِ هَذَا الزَّاعِمِ، فَلَيْتَ شَعْرِي مَا هُوَ الْمَصِيرُ الَّذِي يُفَكِّرُ بِهِ الْمَالِكِيُّ لِنَفْسِهِ!؟

نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

بَلْ إِنَّ الصُّحْبَةَ الشَّرْعِيَّةَ بِزَعْمِ الْمَالِكِيِّ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَبْلَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَيْسُوا مِنَ الصَّحَابَةِ بِزَعْمِهِ، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ قَوْلَهُ: إِنَّهُ لَا يَنْجُو مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِثْلُ هَمَلِ النَّعْمِ، وَأَنَّ الْبَقِيَّةَ يُؤْخَذُونَ إِلَى النَّارِ، يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَسْلَمُونَ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ الَّذِي يَسْلَمُ مِنْهَا!؟

بَلْ إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَمْ يَقُولُوا فِي أَصْحَابِ مُوسَى وَعِيسَى مِثْلَ

هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْقَبِيحَةِ.



وهذا يُبين لنا منتهى السوء الذي وقع فيه المالكى، وإنَّ مَنْ يسمَع أو يطلّع على كلامه في الصحابة، يتّهمه في عقله أو يستدلُّ به على منتهى خُبثه وحقده على خير هذه الأمة، لا سيما زعمه أنَّ العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله رضي الله عنهما ليسا من الصحابة، وزعمه أنَّ أكثر الصحابة إلا قليلاً منهم مثل همل النّعم يؤخذون إلى النار!

وأيضاً إذا كان أكثر الصحابة إلا قليلاً منهم يؤخذون إلى النار في زعم هذا الزاعم، مع أنَّ الكتاب والسنة لم تصل إلى هذه الأمة إلا عن طريق الصحابة؛ لأنَّهم الواسطة بين الناس وبين الرسول ﷺ، فأى حقٍّ وهدى يكون بأيدي المسلمين؛ فإنَّ القدح في الناقل قدحٌ في المنقول، قال أبو زرعة الرازي المتوفى سنة (٢٦٤هـ) رحمه الله: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديق؛ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ عندنا حقٌّ والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنَّما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليُبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى، وهم زنادقة». الكفاية للخطيب البغدادي (ص: ٤٩).

وسأكشف أباطيله الأخرى التي اشتمل عليها كتابه «قراءة في كتب العقائد» وأدحضها إن شاء الله تعالى في كتابي: «الانتصار لأهل السنة والحديث في ردِّ أباطيل حسن المالكى».



٢٢ - قوله: « وأن الإيمان قولٌ باللسان، وإخلاصٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال، وينقصُ بنقصها، فيكون فيها النقصُ وبها الزيادة، ولا يكملُ قولُ الإيمان إلا بالعمل، ولا قولٌ وعملٌ إلا بنيةً، ولا قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بموافقة السُنَّة. والله لا يكفرُ أحدٌ بذنبٍ من أهل القبلة. »

١ - الإيمان عند أهل السُنَّة والجماعة يتألف من اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، فهذه الأمور الثلاثة داخلةٌ عندهم في مُسمَّى الإيمان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿٦٨﴾ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، ففي هذه الآيات دخول أعمال القلوب وأعمال الجوارح في الإيمان.

وروى مسلم في صحيحه (٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الإيمان بضْعٌ وسبعون أو بضْعٌ وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان، » فقد دلَّ الحديثُ على أن ما يقوم بالقلب واللسان والجوارح من الإيمان، وأما ما جاء في القرآن من آيات كثيرة فيها عطف العمل الصالح على الإيمان، كما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ الْأُمَّةِ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾، فلا يدلُّ العطف على عدم دخول الأعمال في



مسمًى الإيمان، بل هو من عطف الخاص على العام؛ وذلك أن التفاوت بين الناس في الإيمان يكون غالباً لتفاوتهم في الأعمال، وفي الأقوال أيضاً؛ لأن القول عمل اللسان، بل إنهم يتفاوتون فيما يقوم بقلوبهم، قال الحافظ في الفتح (٤٦/١) نقلاً عن النووي: « والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره؛ بحيث لا يعتريه الشبهة، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه في بعضها، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها ».

٢ - الذين أخرجوا الأعمال من أن تكون داخلية في مسمًى الإيمان طائفتان: المرجئة الغلاة، الذين يقولون: إن كل مؤمن كامل الإيمان، وأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهذا القول من أبطل الباطل، بل هو كفر.

ومرجئة الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم كأبي حنيفة، الذين قالوا بعدم دخول الأعمال في مسمًى الإيمان، مع مخالفتهم للمرجئة الغلاة في أن المعاصي تضر فاعلها، وأنه يؤاخذ على ذلك ويعاقب، وقولهم غير صحيح؛ لأنه ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم، وإلى ظهور الفسق والمعاصي، كما في شرح الطحاوية (ص: ٤٧٠).

٣ - الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فمن أدلة زيادته قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ



ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۖ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ۖ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۖ﴾.

ومن أدلة نقصانه قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم (٧٨).

وما جاء في حديث الشفاعة من إخراج مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار، رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحديث وصف النبي ﷺ للنساء بأنهن ناقصات عقل ودين، أخرجه البخاري (٣٠٤) ومسلم (١٣٢).

قال الحافظ في الفتح (٤٧/١): «وروى - يعني اللالكائي - بسنده الصحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قولٌ وعملٌ، ويزيد وينقص. وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين، وكلٌ من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين، وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة والجماعة.»

٤ - الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا جُمع بينهما في الذكر فَرَّقَ بينهما في المعنى، وإذا أُفرد أحدهما شَمَلَ المعنيين جميعاً؛ ففي حديث جبريل المشهور الذي جُمع فيه بين الإسلام والإيمان، لَمَّا سُئِلَ عن الإيمان فسره بما



يُناسبُ معناه اللغوي، وهو الأمور الباطنة، بقوله: « أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره »، وَلَمَّا سُئِلَ عن الإسلام فسَّره بما يُناسبُ معناه اللغوي، وهو الأمور الظاهرة، بقوله: « أن تشهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً ».

وإذا ذُكر الإسلام غير مقترن بالإيمان كان معناه شاملاً للأمور الظاهرة والباطنة، وكذا إذا أُفرد الإيمانُ عن الإسلام، فإنَّه يشمل الأمورَ الظاهرة والباطنة، وهذا من جنس لفظ: « الفقير والمسكين »، و« البر والتقوى »، وغير ذلك.

٥ - لا بدَّ في الإيمان من اجتماع الأمور الثلاثة: الاعتقاد والقول والعمل، فلا يكفي الاعتقاد والقول دون العمل، وكلُّ قول وعمل لا بدَّ أن يكون بنية؛ لقوله ﷺ في الحديث: « إنّما الأعمالُ بالنيّات، وإنَّما لكلُّ امرئ ما نوى » أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

واجتماع القول والعمل والنية لا يكون نافعاً إلا إذا كان على السُّنة؛ لقوله ﷺ: « مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » متفق عليه، وفي لفظ لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ».

٦ - قوله: « ولا يكفرُ أحدٌ بذنب من أهل القبلة »: إذا جحد المرء واجباً علماً وجوبه من الدِّين بالضرورة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، فإنَّه يكفرُ، وكذا إذا جحد تحريم ما علَّم تحريمه من الدِّين بالضرورة، كشرب الخمر والزنا ونحو ذلك فإنَّه يكفر، وأما إذا فعل شيئاً من الكبائر غير مستحلٍّ لها، فعند أهل السُّنة أنّه يكون مؤمناً ناقص الإيمان، وإذا مات



من غير توبة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، وإذا عذبه فإنه لا يخلده في النار، وذلك بخلاف قول المعتزلة والخوارج القائلين بخروجه من الإيمان في الدنيا، وتخليده في النار في الآخرة.



٢٣ - قوله: « وأن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يُبعثون، وأرواح أهل الشقاوة مُعذبة إلى يوم الدين ».

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، وهذه الحياة حياة برزخية حقيقية، لا يعلم كيفيتها إلا الله عز وجل، وجاءت السنة مبينة أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، وأن أرواح المؤمنين على صورة طير، وأن المؤمن يُفرش له من الجنة، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مد بصره، وأن الكافر يُفرش له من النار، ويُفتح له باب إلى النار، ويأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلأعه، وقد تقدم إيراد هذه الأحاديث وتخرجها عند قول ابن أبي زيد: « وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأولياؤه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم ».





٢٤ - قوله: « وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ».

النَّاسُ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُمْتَحَنُونَ، فُيْثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وقد وردت الأحاديثُ في فتنَةِ القبر والسؤال فيه، فروى البخاري في صحيحه (٨٦) عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء، عن عائشة في قصة صلاة الكسوف، وفيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتهُ إِلَّا أُرِيتهُ فِي مَقَامِي، حَتَّى الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَأُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيباً - لَا أَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، يُقَالُ: مَا عَلِمْتُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُؤْمِنَةُ - لَا أَدْرِي بَأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمَّ صَالِحًا، قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُنَافِقَةُ - لَا أَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ ».

وروى البخاري في صحيحه (٤٦٩٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: « الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ».

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن عن البراء بن عازب رضي الله عنه في الحديث الطويل (١٨٥٣٤)، وفيه: « فَيَأْتِيهِ - أَيُّ الْمُؤْمِنِ - مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ».

وفيه: « ويأتيه - أي الكافر - ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري! ».

وفي مصنف عبد الرزاق (٦٧٤٤) عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: « إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فإذا دخل المؤمن قبره، وتولّى عنه أصحابه، أتاه ملكٌ شديد الانتهاز، فقال: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول إنّه رسول الله ﷺ وعبدّه، فيقول له الملك: اطلع إلى مقعدك الذي كان لك من النار، فقد أنجاك الله منه، وأبدلك مكانه مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما، فيقول المؤمن: أبشّر أهلي؟ فيقال له: اسكن؛ فهذا مقعدك أبداً، والمنافق إذا تولّى عنه أصحابه يُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت، انظر مقعدك الذي كان لك من الجنة، قد أبدلك الله مكانه مقعدك من النار، وإسناده صحيح، وله حكم الرفع.

وروى مسلم في صحيحه (٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال ».

وفي صحيح البخاري (١٣٧٧) عن أبي هريرة قال: « كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال ».



وهذه الأمور الثلاثة التي يُسأل عنها في القبر ورد ذكرها مجتمعة في حديث العباس بن عبد المطلب في صحيح مسلم (٥٦) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ذاق طعمَ الإيمان مَنْ رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »، وجاء ذكرها أيضاً في أدعية الصباح والمساء، والدعاء عند الأذان، وقد بنى عليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - رسالته النفيسة التي لا يستغني عنها عامي ولا طالب علم: « الأصول الثلاثة وأدلتها »، فإن مراده بالأصول الثلاثة: معرفة العبد ربّه ودينه ونبيّه ﷺ.



٢٥ - قوله: « وأن على العباد حَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنْ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ ».

١ - الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان الستة، التي بيّنها رسول الله ﷺ في حديث جبريل المشهور، بقوله حين سأله عن الإيمان: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »، وهم مخلوقون من نور؛ كما في صحيح مسلم (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ ».

وهم ذَوُّ أجنحة؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وجبريل ستمائة جناح، كما في صحيح البخاري (٣٢٣٢) وصحيح مسلم (٢٨٠).



ويأتون إلى البشر بأشكال على غير هيتهم التي خلّقوا عليها، كما جاء جبريل إلى الرسول ﷺ على صورة رجل غير معروف، في حديث جبريل المشهور من رواية عمر رضي الله عنه، وهو أول حديث عند مسلم في كتاب الإيمان، وجاء إليه في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وجاء جبريل إلى مريم في صورة بشر، وجاءت الملائكة إلى إبراهيم في صورة بشر، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآيات، وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ الآيات.

وهم خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل، ويدل ذلك أن البيت المعمور - وهو في السماء السابعة - يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩).

وروى مسلم في صحيحه (٢٨٤٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤُهَا».

والملائكة منهم الموكّلون بالوحي، والموكّلون بالقطر، والموكّلون بالموت، والموكّلون بالأرحام، والموكّلون بالحفظ، والموكّلون بالجنة، والموكّلون بالنار، والموكّلون بغير ذلك، وكلّهم مستسلمون منقادون لأمر الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ.

والواجب على المسلم الإيمان والتصديق بكل ما جاء في الكتاب العزيز وصحّت به السنة من أخبار عن الملائكة.

٢ - من الملائكة من وُكِّلَ بالحفظ والكتابة، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحَفِظِينَ﴾ ﴿١﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿٢﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وقال:



﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَخَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾

والكُتْبَةُ يكتبون أقوال العباد وأفعالهم، بل ويكتبون الهمم بالحسنة والسيئة؛ فقد روى البخاري (٧٥٠١) ومسلم (٢٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله: إذا أراد عبي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة »، وقال الله عز وجل: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَافِظُونَهُ ۚ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝ ﴾، والمعنى أن حفظ الملائكة للإنسان هو ممَّا أمرهم الله به، والله بكل شيء عليم، وهو يعلم أقوال العباد وأفعالهم كتبت أو لم تُكتب، والكتابة إنما هي لإحصاء أعمال العباد وأقوالهم وإيقافهم عليها وإظهار عدل الله عز وجل فيهم، وأنه يُثيبهم على أعمالهم الحسنة، ويُعاقبهم على أعمالهم السيئة، كما قال الله عز وجل: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾.

والعقاب يقع على الشرك، وكلُّ ذنب دونه فهو تحت مشيئة الله، كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۝ ﴾.

٣ - من الإيمان بالملائكة الإيمان بالملائكة الموكلين بالموت، وقد جاء التَّوْفِي في القرآن مضافاً إلى الله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ



يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَائِهَا^ط فَيَمْسِكُ^ط الَّتِي قَضَىٰ
عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى^٤، وجاء مضافاً إلى ملك
الموت، كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ^٥﴾، وجاء مضافاً إلى الملائكة، كما قال الله عز
وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ^٦﴾، ولا
تنافي بين هذه الإضافات؛ فإضافة الموت إلى الله لكونه الأمر به والمقدّر له
والموجد له، وإضافته إلى ملك الموت لكونه المباشر لقبض الأرواح،
وإضافته إلى الملائكة لأخذهم الأرواح من ملك الموت بعد قبضها، وقد
جاء ذلك مُبَيَّنّاً في حديث البراء بن عازب في مسند الإمام أحمد بإسناد
حسن (١٨٥٣٤) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي
انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ
الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَخَنَوطٌ مِنْ
خَنَوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ! اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفَرَةٍ مِنْ
اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ
فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخْذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا،
فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْخَنَوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأُطْيَبِ نَفْحَةٍ
مَسْكٍ وَجَدْتَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ ...» إلى أن قال: «وإنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا
كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ
سَوْدُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمَسْوُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ
الموت حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ! اخْرُجِي إِلَىٰ



سخط من الله وغضب، قال: فتفرَّق في جسده، فَيَنْتَرَعُهَا كما يُنْتَرَعُ السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض ... » الحديث.



٢٦ - قوله: « وَأَنْ خَيْرَ الْقُرُونِ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ؛ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَنْ لَا يُذَكَّرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، وَالْإِمْسَاكَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ، أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ بِهِمْ أَحْسَنُ الْمَذَاهِبِ. »

١ - أصحابُ رسول الله ﷺ هم كلُّ مَنْ لَقِيَ الرَّسُولَ ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، ذكر هذا التعريف الحافظُ ابنُ حجر في مقدمة كتابه الإصابة في تمييز الصحابة (ص: ١٠)، فقال: « وَأَصَحُّ مَا وَقِفْتُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابِيَّ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مؤمناً به ومات على الإسلام، » وقال في (ص: ١٢): « وهذا التعريف مبنيٌّ على الأصحَّ المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل ومَنْ تبعهما. »

وقد شرح هذا التعريف، فقال: « فيدخل في (مَنْ لَقِيَهُ) مَنْ طالت مجالسته له أو قصُرت، وَمَنْ رَوَى عَنْهُ أَوْ لَمْ يَرَوْهُ، وَمَنْ غَرَا مَعَهُ أَوْ لَمْ يَغْرَ،



ومن رآه رؤية ولو لم يجالس، ومَنْ لم يره لعارض كالعمى.
ويخرج بقيد (الإيمان) من لقيه كافراً ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع
به مرة أخرى.

وقولنا (به) يخرج من لقيه مؤمناً بغيره، كَمَنْ لقيه من مؤمنى أهل
الكتاب قبل البعثة، وهل يدخل من لقيه منهم وآمن بأنه سيُبعث أو لا
يدخل؟ محلُّ احتمال، ومن هؤلاء بَحيرا الراهب ونظرائه.

ويدخل في قولنا: (مؤمناً به) كلُّ مكلف من الجنِّ والإنس.

إلى أن قال: « وخرج بقولنا (ومات على الإسلام) من لقيه مؤمناً
به، ثم ارتدَّ ومات على ردِّته والعياذ بالله، وقد وُجد من ذلك عددٌ يسير
كعُبيد الله بن جحش الذي كان زوجَ أمِّ حبيبة، فإنه أسلمَ معها وهاجر
إلى الحبشة، فتنصَّر هو ومات على نصرانيته، وكعبد الله بن خطل الذي
قُتل وهو متعلِّق بأستار الكعبة، وكربيعة بن أمية بن خلف على ما سأشرحُ
خبرَه في ترجمته في القسم الرابع من حرف الراء، ويدخل فيه مَنْ ارتدَّ
وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء اجتمع به صلى الله عليه وآله وسلم
مرة أخرى أم لا، وهذا هو الصحيح المعتمد، والشَّقُّ الأول لا خلاف في
دخوله، وأبدا بعضهم في الشَّقِّ الثاني احتمالاً وهو مردودٌ؛ لإطباق أهل
الحديث على عدِّ الأشعث بن قيس في الصحابة، وعلى تخريج أحاديثه في
الصحيح والمسانيد، وهو مِمَّن ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر. »

وقول ابن أبي زيد رحمه الله: « وأنَّ خيرَ القرون القرنَ الذين رأوا
رسول الله ﷺ وآمنوا به » موافقٌ لما نقله الحافظ عن البخاري والإمام
أحمد ومن تبعهما من أنَّ الصُّحبةَ حاصلةٌ لِمَنْ جمع بين رؤيته ﷺ والإيمان



به، وهذا بخلاف ما قاله النابتة في هذا العصر الذي مر ذكره في مبحث حوض رسول الله ﷺ، الذي زعم زوراً وبُهتاناً أن الذين أسلموا وهاجروا بعد الحديبية ليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ، وأن صُحبتهم كصحبة المنافقين والكفار، وقد أوضحتُ بطلان هذا الزعم الجائر الخاطيء في كتاب «الانتصار للصحابة الأخيار في ردّ أباطيل حسن المالكي».

٢ - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم خيرُ هذه الأمة التي هي خيرُ الأمم، ويليهم التابعون، ثم أتباع التابعين، وقد دلّ الكتاب والسنة على فضلهم وتبليهم، فمِمَّا جاء في القرآن في فضلهم قول الله عز وجل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شُطْرُوهُ فَنَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ① وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ



وَلَوْ كَانَ يَوْمٌ حَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾
وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

ومِمَّا جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي فَضْلِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَوْلُهُ ﷺ: « خَيْرُ النَّاسِ
قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » رواه البخاري (٣٦٥١) ومسلم
من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

وَرَوَى أَيْضاً وَالْفُظُّ لِلْبُخَارِيِّ (٣٦٥٠) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ
الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ
الْحَدِيثِ.

وقوله ﷺ: « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ:
فِيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ! فَيُفْتَحَ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِتْنًا مِنَ
النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ:
نَعَمْ! فَيُفْتَحَ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِتْنًا مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ
صَحَبَ مَنْ صَحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ! فَيُفْتَحَ لَهُمْ » رواه
البخاري (٣٦٤٩) ومسلم (٢٥٣٢)، واللفظ لمسلم.

وقوله ﷺ: « لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا
مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدَهُمْ وَلَا نَصِيفَهُ » رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)
من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقوله ﷺ: « النَّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا
تُوَعِدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي
أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ » رواه مسلم



(٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

٣ - وأفضل أصحاب الرسول ﷺ رضي الله عنهم الخلفاء الراشدون الهادون المهديون: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية وهو محمد بن علي بن أبي طالب قال: « قلت لأبي: أيُّ الناس خيرٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيتُ أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين. »

وروى الإمام أحمد في مسنده (٨٣٥) - تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد - قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا منصور بن عبد الرحمن يعني الغداني الأشل، عن الشعبي، حدثني أبو جُحيفة الذي كان عليُّ يُسمِّيه: وهب الخير، قال: قال لي علي: « يا أبا جُحيفة! ألا أخبرك بأفضل هذه الأمة بعد نبيها؟ قال: قلت: بلى، قال: ولم أكن أرى أن أحداً أفضل منه، قال: أفضلُ هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وبعدهما آخر ثالث، ولم يُسمَّه، » وإسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين إلا منصور بن عبد الرحمن فهو من رجال مسلم، وأثر علي هذا عن أبي جُحيفة جاء في مسند الإمام أحمد وزوائده لابنه عبد الله من طرق صحيحة أو حسنة، وأرقامها من (٨٣٣) إلى (٨٣٧) و(٨٧١).

وروى البخاري في صحيحه (٣٦٥٥) عن عبد الله بن عمر أنه قال: « كنَّا نُخَيِّرُ بين الناس في زمن النَّبِيِّ ﷺ، فنُخَيِّرُ أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان بن عفَّان، رضي الله عنهم. »



وقال الحافظ ابن حجر في التقريب في ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام:
« مات في رمضان سنة أربعين، وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم
بالأرض بإجماع أهل السنة ».

ومِمَّا جاء في فضلهم وفضل خلافتهم قوله عليه السلام في حديث العرباض
بن سارية رضي الله عنه: « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا،
فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا
بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمَحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ
ضَلَالَةٌ » رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦)، وقال الترمذي:
« حديث حسن صحيح ».

وقوله عليه السلام في حديث سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خلافة النبوة
ثلاثون سنة، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ أَوْ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » رواه أبو داود (٤٦٤٦)
وغيره، وهو حديث صحيح، أورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٦٠)
ونقل تصحيحه عن تسعة من العلماء.

٤ - صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم عدول؛ لثناء الله عز وجل عليهم، وثناء
الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يحتاجون مع ذلك لتعديل المعدلين وتوثيق الموثقين، ولهذا
دَرَجَ السَّلَفُ في التراجم إذا كان المترجم صحابياً أن يقولوا عنه: صحابي،
لا يذكرون توثيقاً ولا غيره ممَّا كانوا يذكرون في غير الصحابة، قال ابن
عبد البر في التمهيد (٤٧/٢٢): « ولا فرق بين أن يُسَمَّى التابعُ الصَّاحِبَ
الذي حَدَّثَهُ أو لا يُسَمِّيه في وجوب العمل بحديثه؛ لأنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ
عدولٌ مرضيُّون ثقاتٌ أثباتٌ، وهذا أمرٌ مجتمَعٌ عليه عند أهل العلم
بالحديث ».



وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٩/١٦): « فالصحابه كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياءه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة، وقد ذهب شِرْذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم!! ».

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٧/١): « وأتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة ».

وقد أشار السيوطي في تدريب الراوي (ص: ٤٠٠) إلى هؤلاء الشذوذ من المبتدعة، فقال: « وقالت المعتزلة: عدول إلا من قاتل علياً ».

وقال أبو عمرو بن الصلاح في علوم الحديث (ص: ٢٦٤): « للصحابة بأسرهم خصيصة، وهي أنه لا يُسأل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمر مفروغ منه؛ لكونهم على الإطلاق معدلين بنصوص الكتاب والسنة وإجماع من يُعتدُّ به في الإجماع من الأئمة ... ».

إلى أن قال: (ص: ٢٦٥): « ثم إن الأئمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتن منهم فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتدُّ بهم في الإجماع؛ إحساناً للظن بهم، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة، والله أعلم ».

وقال النووي في شرحه على مسلم (١٤٩/١٥): « ولهذا اتفق أهل الحق ومن يُعتدُّ به في الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم، رضي الله عنهم أجمعين ».

وقال الخطيب البغدادي في الكفاية (ص: ٤٦): « كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة



رجاله، ويجب النظرُ في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ؛ لأنَّ عدالةَ الصحابة ثابتةٌ معلومةٌ بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن « ثم ذكر الآيات والأحاديث في ذلك.

ومِمَّا يوضِّحُ ذلك أنَّ دواوينَ السُّنة صحاحها وجوامعها وسننها ومسانيدها ومعاجمها وغير ذلك مشتملةٌ على الرواية عن الصحابة على الإجماع، وما ثبت بالإسناد إليهم فهو حجةٌ عند أهل السنة، ولا تؤثر جهالتهم؛ لأنَّ المجهول منهم في حكم المعلوم.

ثمَّ إنَّ قولَ أهل السنة والجماعة بعدالة الصحابة لا يعني عصمتهم؛ لأنَّ العصمة عندهم لا تكون إلاَّ للرُّسل والأنبياء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية (ص: ٢٨): « وهم مع ذلك (يعني أهل السنة والجماعة) لا يعتقدون أنَّ كلَّ واحدٍ من الصحابة معصومٌ عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، وهم من السَّوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنَّهم يُغفر لهم من السيئات ما لا يُغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنَّهم خير القرون، وأنَّ المدَّ من أحدهم إذا تصدَّق به كان أفضل من جبل أُحُد ذهباً ممَّن بعدهم، ثمَّ إذا كان قد صدر عن أحدٍ منهم ذنبٌ فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غُفر له بفضلٍ سابقته، أو بشفاعَةِ محمد ﷺ الذي هم أحقُّ الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفرَّ به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحقَّقة فكيف الأمور التي كانوا فيها مُجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور.



ثمَّ القدر الذي يُنكَر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما منَّ الله عليهم من الفضائل علَّم يقيناً أنَّهم خيرُ الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنَّهم الصَّفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله .»

وقول أهل السنة بتعديل الصحابة، كما أنَّه مستندٌ إلى نصوص من الكتاب والسنة، فهو مَبْنِيٌّ على حُسْن الظنِّ بهم، ومَنْ أحسن الظنَّ بهم فهو مأجورٌ، والقول بخلاف ذلك مَبْنِيٌّ على إساءة الظنِّ بهم، ومَنْ أساء الظنَّ بهم فهو آثمٌ.

٥ - والواجبُ لأصحاب رسول الله ﷺ توليهم ومَحَبَّتُهم والثناءُ عليه بالجميل اللائق بهم، وألاً يُذكروا إلا بخير، قال الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: « ونحبُّ أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحُبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضُّهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ .»

وروى الخطيبُ البغدادي في كتابه الكفاية (ص: ٤٩) بإسناده إلى أبي زرعة الرازي أنَّه قال: « إذا رأيت الرجلَ يتقصُّ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديقٌ؛ وذلك أنَّ رسول الله ﷺ عندنا حقٌّ والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنَّما يريدون أن يجرحوا شهودنا لِيُبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقةٌ .»



وقال البغوي في شرح السنة (٢٢٩/١): « قال مالك: مَنْ يَغْضُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ عَلَيْهِ غِلٌّ فَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي فَيءِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ الْآيَةَ، وَذَكَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلٌ يَنْتَقِصُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ مَالِكُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لِيَغْضَبَهُمُ الْكُفَّارُ ﴾، ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ ».

وقال الإمام أحمد في كتابه السنة: « ومن السَّنة ذكرُ محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ، وَالْكَفَّ عَنْ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ، فَمَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ رَافِضِيٌّ، حُبُّهُمْ سَنَةٌ وَالدَّعَاءُ لَهُمْ قَرَبَةٌ وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِمْ وَسِيلَةٌ وَالْأَخْذُ بِأَثَارِهِمْ فَضِيلَةٌ ».

وقال أيضاً: « لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَذْكَرَ شَيْئًا مِنْ مَسَاوِيهِمْ وَلَا يَطْعَنَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ وَجِبَ عَلَى السُّلْطَانِ تَأْذِيهِ وَعَقُوبَتُهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُ بَلْ يَعْاقِبُهُ ثُمَّ يَسْتَتِيهِ فَإِنْ تَابَ قَبْلَ مَنْعِهِ وَإِنْ لَمْ يَتَبَ أَعَادَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ وَخَلَّدَهُ فِي الْحَبْسِ حَتَّى يَتُوبَ وَيَرْاجِعَ ».

وقال ابن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل (٨٧/١): « فَأَمَّا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُمْ الَّذِينَ شَهِدُوا الْوَحْيَ وَالتَّرْوِيلَ، وَعَرَفُوا التَّفْسِيرَ وَالتَّأْوِيلَ، وَهُمْ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَنَصَرَتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَإِظْهَارِ حَقِّهِ، فَرَضِيهِمْ لَهُ صَحَابَةٌ، وَجَعَلَهُمْ لَنَا أَعْلَامًا وَقُدُورَةً،



فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله عز وجل، وما سنَّ وشرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وحظر وأدب، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين. وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعانية رسول الله ﷺ ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرّفهم الله عز وجل بما منّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة»، إلى أن قال: «فكانوا عدول الأمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة.

وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والافتداء بهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية.

ووجدنا النبي ﷺ قد حضَّ على التبليغ عنه في أخبار كثيرة، ووجدناه يخاطب أصحابه فيها، منها أن دعا لهم فقال: (نصّر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره)، وقال ﷺ في خطبته: (فليبلغ الشاهد منكم الغائب)، وقال: (بلغوا عني ولو آية)، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج).

ثم تفرقت الصحابة رضي الله عنهم في النواحي والأمصار والثغور، وفي فتوح البلدان والمغازي والإمارة والقضاء والأحكام، فبث كل واحد منهم في ناحيته وبالبلد الذي هو به ما وعاه وحفظه عن رسول الله ﷺ، وحكموا بحكم الله عز وجل وأمضوا الأمور على ما سنَّ رسول الله ﷺ، وأفتوا فيما سئلوا عنه ممّا حضرهم من جواب رسول الله ﷺ عن نظائرها من المسائل، وجردوا أنفسهم مع تقدمه حسن النية والقربة إلى الله تقدس اسمه، لتعليم الناس الفرائض والأحكام والسنن والحلال والحرام، حتى قبضهم الله عز وجل رضوان الله ومغفرته ورحمته عليهم أجمعين.»



وقال أبو عثمان الصابوني في كتابه عقيدة السلف وأصحاب الحديث: « وَيَرُونَ الْكَفَّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَطْهِيرِ الْأَلْسِنَةِ عَنْ ذِكْرِ مَا يَتَضَمَّنُ عَيْباً لَهُمْ أَوْ نَقْصاً فِيهِمْ، وَيَرُونَ التَّرَحُّمَ عَلَى جَمِيعِهِمْ وَالْمَوَالَاةَ لِكَاثِبِهِمْ ».

ونقل الحافظ في الفتح (٣٦٥/٤) عن أبي المظفر السمعاني أنه قال: « التَّعَرُّضُ إِلَى جَانِبِ الصَّحَابَةِ عَلَامَةٌ عَلَى خِذْلَانِ فَاعِلِهِ، بَلْ هُوَ بَدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العقيدة الواسطية: « وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَالسُّنْتُهُمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وَطَاعَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ) إِلَى أَنْ قَالَ: وَيَتَرَعَّوْنَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّوهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغَيْرُ عَنِ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُمْ هُمْ فِيهِ مُعْذَرُونَ إِمَّا بِمُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا بِمُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ ».

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُتَحَرِّينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »



وَرَضُوا عَنْهُ ﴿ الآية قال: « فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ولا سيما سيّد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم ويسبونهم عياداً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم، وأمّا أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يتبدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون ».

وقال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (ص: ٤٦٩): « فمن أضل ممن يكون في قلبه غلٌّ على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود من خير أهل ملّتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، ولم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبّوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة ».

وهذا المعنى جاء في شعر أحد علمائهم بين القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري، وهو كاظم الأزري، فقال:

أهم خير أمة أخرجت للناس هيها ذاك بل أشقاها!!!

وقفتُ عليه في نقد الأستاذ محمود الملاح لقصيدته الأزرية المطبوع بعنوان: « الرزية في القصيدة الأزرية » (ص: ٥١).

وما جاء في هذا البيت غاية في الجفاء والخبث، وهو مُصادمٌ للقرآن لقوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

وقال الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري (٣٤/١٣): « واتفق أهلُ السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من حروبٍ ولو عُرِفَ المحقُّ منهم؛ لأنَّهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلاَّ عن اجتهادٍ وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنَّه يؤجر أجراً واحداً وأنَّ المصيب يؤجر أجرين ».

وقال الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري في كتابه الرياض المستطابة في من له رواية في الصحيحين من الصحابة (ص: ٣١١): « وينبغي لكلُّ صيِّئٍ متدينٍ مسامحة الصحابة فيما صدر بينهم من التشاجر والاعتذار عن مخطئهم وطلب المخارج الحسنة لهم وتسليم صحة إجماع ما أجمعوا عليه على ما علموه، فهم أعلم بالحال، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وطريقة العارفين الاعتذار عن المعائب، وطريقة المنافقين تتبُّعُ المثالب، وإذا كان اللازم من طريقة الدين سترَ عورات المسلمين فكيف الظنُّ بصحابة خاتم النبيين مع اعتبار قوله ﷺ: (لا تسبُّوا أحداً من أصحابي)، وقوله: (من حَسَنَ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) هذه طريقةُ صلحاء السلف وما سواها مهاوٍ وتلف ».

٢٧ - قوله: « والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلماهم ».

١ - قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ، أولو الأمر هم العلماء والأمراء، فيُسمع للعلماء ويُطاع فيما يبينونه من أمور الدين، ويُسمع للأمراء ويُطاع فيما يأمر به ممَّا ليس معصيةً لله عز وجل، وقد رجَّح تفسير وُلاة الأمر بما يشمل العلماء والأمراء القرطبي وابن كثير في تفسيريهما، فعزا القرطبي تفسير ﴿أُولِيَ الْأَمْرِ﴾ بالأمراء إلى الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم، وقال أيضاً: « وقال جابر بن عبد الله ومجاهد (أولو الأمر): أهل القرآن والعلم، وهو اختيار مالك رحمه الله، ونحوه قول الضحاك، قال: يعني الفقهاء والعلماء في الدين ».

وقال ابن كثير في تفسيره: « وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني العلماء ».

ويدلُّ لطاعة العلماء قول الله عز وجل: ﴿فَسَقِلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وقوله: ﴿لَوْلَا بَتُّهُمْ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَأَكْلِهِمُ السَّخْتُ﴾ .

ويدلُّ لطاعة الأمراء قوله ﷺ: « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » رواه البخاري (٧١٤٢) ومسلم (١٨٣٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقوله ﷺ: « إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » رواه البخاري (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠) من حديث عليّ رضي الله عنه.



وقوله ﷺ: « عليك السمع والطاعة في عُسرِكَ ويُسرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وأثرَةٍ عليك » رواه مسلم (١٨٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى مسلم أيضاً (١٨٣٧) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: « إنَّ خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً مُجَدَّعَ الأطرافِ ». قال سهل بن عبد الله التستري كما في تفسير القرطبي (٢٦٠/٥): « لا يزال النَّاسُ بخيرِ ما عَظَّمُوا السُّلْطَانَ والعلماءَ، فإذا عَظَّمُوا هَٰذِينَ أَصْلَحَ اللهُ دَنِيَاهُمْ وأَخْرَاهُمْ، وإذا اسْتَخَفُّوا بهَٰذِينَ أَفْسَدَ دَنِيَاهُمْ وأَخْرَاهُمْ ».

٢ - تَمَّ ولايةُ الأمرِ بأحدِ أمورِ أربعة:

الأول: النَّصُّ من رسولِ الله ﷺ، لو نصَّ على أحدٍ بعينه فإنَّه يكون خليفةً بذلك، وقد قال بعضُ أهلِ العلم: إنَّ خلافةَ أبي بكر رضي الله عنه تَمَّتْ بذلك، والصَّحيحُ أنَّه لم يأتِ نصٌّ خاصٌّ عن رسولِ الله ﷺ بتعيين خليفة من بعده، لا أبي بكر ولا غيره، كما قال عمر رضي الله عنه لما طُلِبَ منه أن يستخلف في مرضِ موته، قال: « إنَّ أَسْتَخْلَفْتُ فقد استخلفَ مَنْ هو خَيْرٌ مِنِّي: أبو بكر، وإنَّ أَتْرَكَ فقد تركَ مَنْ هو خَيْرٌ مِنِّي: رسولُ الله ﷺ » رواه البخاري (٧٢١٨) ومسلم (١٨٢٣).

وجاء عنه رضي الله عنه نصوصٌ تدلُّ على أنَّ أبا بكر رضي الله عنه هو الأَحَقُّ والأوَّلُ بالأمر من بعده، مثل تقديم النَّبيِّ إِيَّاهُ في الصلاة بالنَّاسِ في مرضِ موته رضي الله عنه، وأَوْضَحُ شيءٍ في ذلك ما رواه البخاري (٥٦٦٦) ومسلم (٢٣٨٧)، واللفظُ لمسلم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسولُ الله ﷺ في مرضه: ادْعِي لي أبا بكرٍ وأَخْأَكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتِمَّنِيَ



مُتَمَنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أُولى، ويأبى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكرٍ».

الثاني: اتِّفَاقُ أَهْلِ الحُلِّ والعقد على تعيين خليفة، ويدلُّ له اتِّفَاقُ الصَّحَابَةِ على اختيار أبي بكرٍ للخلافة بعد رسول الله ﷺ، وهو اتِّفَاقُ مُسْتَنَدٍ إلى نصوص دالَّة على أَنَّهُ الأحقُّ بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ومنها ما تقدَّمت الإشارةُ إليه قريباً.

الثالث: أن يعهد الخليفةُ إلى رجلٍ يلي الخلافةَ من بعده، كما حصل من استخلاف أبي بكرٍ لعمر رضي الله عنهما، ويدلُّ له أثرُ عمر رضي الله عنه الذي تقدَّم قريباً.

الرابع: أن يتغلَّبَ على النَّاسِ رجلٌ بالقهر والغلبة، فيستقرَّ له الأمرُ، كما حصل من انتزاع أبي العباس السَّفَّاح الخلافةَ من بني أُمَيَّةَ.

وقد ذكر هذه الأمورَ الأربعةَ القرطبيُّ في تفسيره عند تفسير قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، وذكرها شيخنا الشيخُ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في كتابه «أضواء البيان» عند هذه الآية، قال القرطبي: «فإن تغلَّبَ مَنْ له أهليَّةُ الإمامة وأخذها بالقهر والغلبة، فقد قيل: إنَّ ذلك يكون طريقاً رابعاً، وقد سئل سهل بن عبد الله التستري: ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام؟ قال: تُجْبِيهِ وتُؤَدِّي إليه ما يُطالبُكَ من حقِّه، ولا تُنكِر. فعالُه ولا تفرَّ منه، وإذا ائتمنكَ على سرِّ من أمر الدِّين لم تُفْشِه، وقال ابن خويز منداد: ولو وثب على الأمر مَنْ يصلُحُ له من غير مشورةٍ ولا اختيارٍ وباعٍ له النَّاسُ ثَمَّتْ له البيعةُ، والله أعلم».

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢٣٤/١٢) في قول عبد الله ابن عمرو: «أطعَه في طاعةِ الله، وَاغْصِه في معصيةِ الله» قال: «فيه دليلٌ



لوجوب طاعة المتولين للإمامة بالقهر من غير إجماع ولا عهد». وقال الحافظ في الفتح (١٢٢/١٣): «وأما لو تغلب عبدٌ حقيقةً بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إجماداً للفتنة، ما لم يأمر بمعصية».

وقال الإمام أحمد في اعتقاده كما في السنة للألكائي (١٦١/٢): «ومن خرج على إمام المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقرؤا له بالخلافة بأي وجه كان: بالرضا أو بالغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية».

وقال الحافظ في الفتح (٧/١٣) في شرح حديث: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية» قال: «قال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدماء، وحثهم هذا الخير وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما في الحديث الذي بعده».

يشير بذلك إلى حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

٣ - حق ولادة الأمر على الرعية النصح لهم، ويكون النصح بالسمع والطاعة لهم في المعروف، والدعاء لهم، وترك الخروج عليهم ولو كانوا جائرين، ومن أدلة النصح لهم قوله ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟



قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم (٩٥).

وروى الإمام مالك في الموطأ (٢/٩٩٠) عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخطُ لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخطُ لكم قيلَ وقالَ، وإضاعة المال، وكثرة السؤال». ورواه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٨٧٩٩)، وهو حديثٌ صحيحٌ.

وفي مسند الإمام أحمد (٢١٥٩٠) بإسنادٍ صحيحٍ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه في حديثٍ طويلٍ، وفيه: «ثلاثُ خصالٍ لا يغلُ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ أبداً: إخلاصُ العملِ لله، ومناصحةُ ولاةِ الأمر، ولزومُ الجماعة؛ فإنَّ دعوتهم تُحيطُ من ورائهم».

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (ص: ٧٩) في معنى «لا يغلُ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ»: «أي لا يحمل الغلُّ ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنَّها تنفي الغلَّ والغشَّ وفسادَ القلب وسخائمه» إلى أن قال: «وقوله (ومناصحةُ أئمة المسلمين): هذا أيضاً منافع للغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ النصيحة لا تجامعُ الغلَّ؛ إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأئمة فقد برئ من الغلِّ».

وقوله: (ولزومُ جماعتهم): هذا أيضاً مما يطهرُ القلب من الغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحبُّهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرُّه ما يسرُّهم».

وقال النووي في شرحه على مسلم (٢/٣٨): «وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحقِّ وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبههم



وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف الناس لطاعتهم، قال الخطابي رحمه الله: ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يُغرُّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعى لهم بالصِّلاح».

وقال ابن حجر في الفتح (١/١٣٨): «والنصيحة لأئمة المسلمين إعانتهم على ما حملوا القيام به، وتنبههم عند الغفلة، وسد خللتهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، وردُّ القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن، ومن جملة أئمة المسلمين أئمة الاجتهاد، وتقع النصيحة لهم بيبث علومهم، ونشر مناقبهم، وتحسين الظن بهم».

ثم إن النصيحة لولاة الأمور وغيرهم تكون سرًّا وبرفق ولين، ويدلُّ لذلك قول الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ، وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم (٢٥٩٤).

وفي صحيح البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ لمسلم، عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قيل لأسامة: «ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: أثرون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟ والله! لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمراً لا أحب أن أكون أوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ» الحديث.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/٥١): «أي كلمته فيما أشرتم



إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب في السرّ بغير أن يكون في كلامي ما يثير فتنة أو نحوها».

وعن عياض بن غنم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ السُّلْطَانَ بِأَمْرٍ فَلَا يُدْ لَهُ عِلَانِيَةٌ، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيُخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ» رواه أحمد (١٥٣٣٣) والحاكم (٢٩٠/٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٠٩٦ - ١٠٩٨)، قال الألباني في تخريجه (٥٢٣/٢): «فالحديث صحيحٌ بمجموع طرقه».

وإذا خلا النصّح من الرفق واللّين وكان علانيةً فإنّه يضرُّ ولا ينفع، ومن المعلوم أن أيّ إنسان إذا كان عنده نقصٌ يجب أن يُنصح برفقٍ ولينٍ، وأن يكون ذلك سرّاً، فعليه أن يعامل النَّاسَ بمثل ما يجب أن يعاملوه به، ففي صحيح مسلم (١٨٤٤) في حديث طويلٍ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النَّبيَّ ﷺ قال: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرْحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتَهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ».

٤ - من النصّح للولاء السمع والطاعة في المعروف، فإذا أمروا بمعصية فلا سمع ولا طاعة في ذلك، ويدلّ لذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وجاء في السنة أحاديثٌ كثيرةٌ في السمع والطاعة لولاء الأمور، وقد مرَّ منها قريباً حديثُ عبد الله ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي ذر، وعبادة ابن الصامت.

وروى التّسائي (٤١٦٨) بإسناد صحيح عن جرير رضي الله عنه قال: بايعتُ النَّبيَّ ﷺ على السَّمْعِ والطَّاعَةِ، وَأَنْ أَنْصَحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».



وفي صحيح مسلم (١٨٤٧) في حديث طويل عن حذيفة رضي الله عنه قال له رسول الله ﷺ: « تسمعُ وتطيعُ للأمير، وإنْ ضربَ ظهرك وأخذَ مالك، فاسمعُ وأطعْ ».

وروى البخاري (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، وَمَنْ يعصيني فقد عصى الله، وَمَنْ يُطع الأمير فقد أطاعني، وَمَنْ يعصِ الأمير فقد عصاني ».

وروى مسلم في صحيحه (١٨٤٦) عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: « سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله! أرايتَ إن قامتْ علينا أمراءُ يسألونا حقَّهم ويمنعونا حقَّنَا؟ فقال رسول الله ﷺ: اسمعوا وأطيعوا؛ فإنَّما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم ».

وفي تفسير القرطبي (٢٥٩/٥) أن سهل بن عبد الله التستري قال: « إذا نهي السلطانُ العالمُ أن يُفتيَ فليس له أن يُفتيَ، فإن أفتى فهو عاصٍ، وإن كان أميراً جائراً »، ويدلُّ لذلك حديثُ عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يقصُّ إلاَّ أميرٌ أو مأموراً أو مختالاً » رواه الإمام أحمد (٢٤٠٠٥) وأبو داود (٣٦٦٥) وهو حديثٌ صحيحٌ بطرقه، وانظر تعليقَ الألباني على المشكاة على حديث رقم (٢٤٠).

وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يُفتي بالتمتع في الحجِّ، فبلغه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه يأمر بالإفراد، فقال: « يا أيها الناس! مَنْ كُنَّا أفتيناهُ فتياً فليتَّذِرْ؛ فإنَّ أميرَ المؤمنين قادمٌ عليكم، فبه فائتموا »، أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٢١).

وفي سنن البيهقي (١٤٤/٣) عن عبد الرحمن بن يزيد قال: « كُنَّا مع عبد الله بن مسعود يجمع، فلَمَّا دخلَ مسجدَ منى قال: كم صلَّى أميرُ



المؤمنين؟ قالوا: أربعاً، فصلّى أربعاً، قال: فقلنا: ألم تُحدّثنا أن النبي ﷺ صلّى ركعتين، وأباً بكر صلّى ركعتين، فقال: بلى! وأنا أُحدّثكموها الآن، ولكن عثمان كان إماماً فما أخالفه، والخلافُ شرٌّ».

وهو عند أبي داود (١٩٦٠)، ورواه البيهقي من طريقه (١٤٣/٣)، وفي إسناده من أئهم، وعند البيهقي من طريق أخرى فيها من أئهم، وفيها: «قال: إنّي أكرهُ الخلافَ». وإتمام الصلاة في السّفر خلافُ الأولى، قد فعله ابن مسعود تركاً لمخالفة عثمان.

وفي صحيح البخاري (٩٥٦) ومسلم (٨٨٩) في قصّة بدء مرّوان بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة، وإنكار أبي سعيد الخدري عليه ذلك، ذكر الحافظ في الفتح (٤٥٠/٢) من فوائد الحديث: «جوازُ عمل العالم بخلاف الأولى إذا لم يوافقه الحاكم على الأولى؛ لأنّ أبا سعيد حضر الخطبة ولم ينصرف، فيستدلُّ به على أنّ البداءة بالصلاة فيها ليس بشرطٍ في صحّتها، والله أعلم».

وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١١٧/٢): «وأما السمعُ والطاعةُ لولاةِ أمور المسلمين، ففيها سعادةُ الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار طاعة ربّهم».

٥ - من التّصحّح للولاة الدعاء لهم وعدمُ الدعاء عليهم، وهي طريقة أهل السنّة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية (ص ١٢٩): «ولهذا كان السّلفُ كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوةٌ مجابةٌ لدعونا بها للسلطان».

وقال الشيخ أبو محمد الحسن البرهاري في كتابه شرح السنّة (ص ١١٦): «وإذا رأيتَ الرَّجُلَ يدعو على السلطان فاعلم أنّه صاحبُ هوى، وإذا



رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ بِالصَّلَاحِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سَنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
يَقُولُ فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مَا جَعَلْتُهَا إِلَّا فِي السُّلْطَانِ...
ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَى فَضِيلٍ قَوْلَهُ: «لَوْ أَنَّ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ مَا جَعَلْتُهَا إِلَّا فِي
السُّلْطَانِ، قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ! فَسَّرْنَا هَذَا، قَالَ: إِذَا جَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي لَمْ
تَعْدُنِي، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي السُّلْطَانِ صَلَحَ، فَصَلَحَ بِصَلَاحِهِ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ،
فَأَمَرْنَا أَنْ نَدْعُو لَهُمُ بِالصَّلَاحِ، وَلَمْ نَوْمِرْ أَنْ نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَإِنْ ظَلَمُوا وَإِنْ
جَارُوا؛ لِأَنَّ ظَلَمَهُمْ وَجَوْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَصَلَاحَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ
وَلِلْمُسْلِمِينَ».

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ فِي عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: «وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ
عَلَى أَثْمَنًا وَوَلَاةَ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ
طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا
بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمُ بِالصَّلَاحِ وَالْمَعَاوَةِ». الْعَقِيدَةُ مَعَ شَرْحِهَا لِابْنِ أَبِي الْعَزَّ
(ص ٥٤٠).

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الصَّابُونِيُّ فِي كِتَابِهِ عَقِيدَةُ السَّلَفِ أَصْحَابُ
الْحَدِيثِ (ص ٩٢ - ٩٣): «وَيَرَى أَصْحَابُ الْحَدِيثِ الْجَمْعَةَ وَالْعِيدِينَ
وغيرهما مِنَ الصَّلَوَاتِ خَلْفَ كُلِّ إِمَامٍ مُسْلِمٍ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، وَيُرُونَ
جِهَادَ الْكُفَرَةِ مَعَهُمْ وَإِنْ كَانُوا جَوْرَةً فَجَرَةً، وَيُرُونَ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْإِصْلَاحِ
وَالْتَوْفِيقِ وَالصَّلَاحِ وَبَسْطِ الْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ».

٦ - إِذَا حَصَلَ مِنَ وُلَاةِ الْأَمْرِ فَسْقٌ أَوْ جَوْرٌ فَلَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ؛
لِأَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَوْضَى وَالْفُسَادِ أَضْعَافٌ مَا يَحْصُلُ مِنَ
الْجَوْرِ، وَلَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا حَصَلَ مِنْهُمْ كُفْرٌ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، وَقَدْ
دَلَّ عَلَى ذَلِكَ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَمَلُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا



رواه البخاري (٧٠٥٥) ومسلم (١٧٠٩) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْع والطَّاعة في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَنْ لَا تُنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ.»

وروى مسلم في صحيحه (١٨٥٥) عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيارُ أئمتكم الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، وتُصلُّون عليهم وتُصلُّون عليكم، وشرارُ أئمتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قالوا: قلنا: يا رسول الله! أفلا ننايذهم عند ذلك؟ قال: لا! ما أقاموا فيكم الصلاة، لا! ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا مَنْ وليَ عليه وال، فرآه يأتي شيئاً من معصية، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا يترعنَّ يداً من طاعة.»

وروى مسلم (١٨٥٤) عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتَنْكُرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَأَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ، قَالَوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا نَقَاتُلُهُمْ؟ قال: لا! ما صَلَّوْا.»

وروى البخاري (٧٠٥٤) ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.»

قال الحافظ في شرحه (٧/١٣): «قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء، فكُنِيَ عنها بمقدار الشبر؛ لأنَّ الأخذ في ذلك يؤوِل إلى سفك الدماء بغير حق.»



وقال الإمام أحمد في اعتقاده كما في السنّة للالكائي (١٦١/١): « ولا يحلُّ قتالُ السلطان ولا الخروجُ عليه لأحدٍ من النَّاسِ، فمن فعل ذلك فهو مبتدعٌ على غير السنّة والطريق ».

ومرّاً قريباً قولُ الطحاوي: « ولا نرى الخروجَ على أئمتنا ووُلاةِ أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا نَنزِعُ يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عزَّ وجلَّ فريضة، ما لم يأْمروا بمعصية، وندعو لهم بالصَّلاح والمعافاة ».

وقال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٩٣): « ولا يرون الخروجَ عليهم بالسيف، وإن رأوا منهم العدولَ عن العدلِ إلى الجور والحيف ».

ومن قواعد الشريعة ارتكابُ أخفِّ الضررين في سبيل التخلُّص من أشدِّهما، قال ابنُ القيم في كتاب إعلام الموقعين (١٥/٣): « إنَّ النبيَّ ﷺ شرع لأُمَّته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبُّه الله ورسوله، فإذا كان إنكارُ المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله، فإنَّه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يُبغضه ويمقتُ أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنَّه أساسُ كلِّ شرٍّ وفتنةٍ إلى آخر الدهر ».

وما أحسنَ وأجملَ قولَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « تكونُ أمورٌ مشتهاتٌ، فعليكم بالتَّوَدُّ؛ فإنَّ أحدكم أن يكونَ تابِعاً في الخيرِ خيرٌ من أن يكونَ رأساً في الشرِّ » رواه البيهقي في الشعب (٢٩٧/٧).



٢٨ - قوله: « وأتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم .
 الخيرُ كلُّ الخير والسعادةُ كلُّ السعادة في أتباع ما كان عليه رسول الله ﷺ
 وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان، وقد أخبر النبي ﷺ عن افتراق
 هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي
 يا رسول الله؟ قال: « هي الجماعة »، وقد مرَّ ذلك، ومرَّ أيضاً قول النبي ﷺ
 في حديث العرياض بن سارية: « ... فإنه من يعيش منكم بعدي
 فسرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين،
 تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ
 محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة ».

ومرَّ أيضاً قول مالك رحمه الله: « لن يصلح آخرُ هذه الأمة إلا بما
 صلح به أولُها ».

وقال الإمام أحمد في أول اعتقاده كما في السنة للالكائي (١/١٥٦):
 « أصولُ السنة عندنا التمسُّكُ بما كان عليه أصحابُ رسول الله ﷺ
 والافتداءُ بهم، وتركُ البدع، وكلُّ بدعةٍ فهي ضلالةٌ، وتركُ الخصومات
 والجلوسُ مع أصحاب الأهواء، وتركُ المراء والجدال والخصومات في الدين ».
 وقد أثنى الله على من جاء بعد المهاجرين والأنصار، مستغفراً لهم سائلاً
 الله ألا يجعل في قلبه غلاً للمؤمنين، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ
 يَقُولُونَ رَبَّنَا آغِثْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
 قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ » .

قالت عائشة رضي الله عنها فيمن نال من بعض الصحابة: « أمروا أن
 يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبَّوهم » أخرجه مسلم (٣٠٢٢).



وقال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٩٧/٢): «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكْلُفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ» .

وقال أيضاً كما في سنن الدارمي (٢١١): «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا؛ فَقَدْ كَفَيْتُمْ» .

وفي سنن الدارمي أيضاً (١٤١) عن عثمان بن حاضر، قال: «دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: نَعَمْ! عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالِاسْتِقَامَةِ، اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ!» .

وفيه أيضاً (١٤٢) عن ابن سيرين قال: «كَانُوا يَرُونَ أَنَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا كَانَ عَلَى الْأَثَرِ» .

وفيه أيضاً (١٤٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُقْبِضَ، وَقَبْضُهُ أَنْ يَذْهَبَ أَهْلُهُ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَالْتَّنَطُّعُ وَالتَّعَمُّقُ وَالبَدْعُ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ» .

والمراد بالعتيق ما دلَّ عليه دليل، وكان عليه السلف، ولم يكن محدثاً .
وفي كتاب السنَّة لمحمد بن نصر المروزي (٨٠) أنَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنَّكُمْ سَتَحْدِثُونَ وَيُحْدِثُ لَكُمْ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُحَدِّثَةً فَعَلَيْكُمْ بِالْهُدَى الْأَوَّلِ» .



وفيه أيضاً (٨٧) أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: « يا معشر القراء! اسلكوا الطريق؛ فوالله! لمن سلكتموه لقد سبقتم سبقاً بيناً، وإن أخذتم يمينا وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً ».

وفيه أيضاً (١٠٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: « اقتصادٌ في سنة خير من اجتهاد في بدعة، إنيك إن تبغ خير من أن تبدع، ولن تخطئ الطريق ما أتبع الأثر ».

وفيه أيضاً (٩٤): « أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الناس أنه لا رأي لأحد مع سنة سنّها رسول الله ﷺ ».

وفيه (١١٠) عن عروة بن الزبير أنه قال: « السنن! السنن! فإن السنن قوام الدين ».

ولقد أحسن من قال:

دينُ النبيِّ محمدٍ أخبارُ	نعم . المطيَّةُ للفتى آثارُ
لا ترغبنَّ عن الحديث وأهله	فالرأي ليلٌ والحديثُ نهارُ
ولربّما جهل الفتى أثر الهدى	والشمسُ بازغةٌ لها أنوارُ

وقال آخر وأحسن فيما قال:

الفقه في الدين بالآثار مقترن	فاشغل زمانك في فقه وفي أثر
فالشغل بالفقه والآثار مرتفع	بقاصد الله فوق الشمس والقمر



٢٩ - قوله: « وترك المراء والجدال في الدين ».

طريقة أهل السنة والجماعة أتباع الكتاب والسنة، والاستسلام والانقياد لنصوصهما، بخلاف غيرهم ممن يعول على العقول، ويتهم الثقول، ويجادل بالباطل ليدحض به الحق.

وقد جاءت الأدلة من الكتاب والسنة في التحذير من ذلك، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَمَيَّ صَلَّيْلٍ بِعِيْلٍ ﴾ ، وقال: ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ ، وقال: ﴿ وَتُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ ، وقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ ، وقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وروى البخاري (٢٤٥٧) ومسلم (٢٦٦٨) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ».

قال الحافظ في شرحه (١٨٨/٨): « أي الشديد اللدد الكثير الخصومة ».

وذكر في (١٨١/١٣) أن المراد به الكافر أو من خاصم بباطل من المسلمين.

وقال ﷺ: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ » رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وقال: « هذا حديث حسن صحيح ».

وروى مسلم في صحيحه (٢٦٦٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: « هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه



الغضب، فقال: إنما هلك مَنْ كان قبلكم باختلافهم في الكتاب.»

وروى ابن ماجه (٢٥٤) عن جابر بن عبد الله أن النَّبِيَّ ﷺ قال: « لا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لَتَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا لَتُمَارَوْا بِهِ السُّفَهَاءُ، وَلَا تَحْيَرُوا بِهِ الْمَجَالِسُ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالْتَأَرِ النَّارَ.»

قال ابن أبي العزّ الحنفي في شرح قول الطحاوي (ص٤٢٧): « ولا تُماري في دين الله»، قال: « معناه لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم؛ التماساً لامترائهم ومثيلهم؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل وتليب الحق وإفساد دين الإسلام.»

ومن طريقة أهل الزيغ والضلال الجدال بالباطل وأتباع ما تشابه من القرآن، بخلاف طريقة أهل الحق، الذين يؤمنون بالمحكم والمتشابه ويردّون المتشابه إلى المحكم، قال الله عزّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝﴾

وروى البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة أن النَّبِيَّ ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ الآية، فقال: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سئى الله، فاحذروهم.»

وفي سنن الدارمي (٤٠٦) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: « لا تُجالسوا أصحاب الخصومات؛ فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.»



وفي جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/١٣٤) عن مالك قال:
« المرء يُقَسِّي القلبَ ويُورث الضَّغْنَ ».

وقال عمر بن عبد العزيز كما جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٣): « مَنْ
جعل دينه غرضاً للخصومات أكثرَ التَّنْقُلِ ».

وأما المجادلةُ بالتي هي أحسن لإظهار الحقِّ وردِّ الباطل فذلك حقٌّ، وقد
أمر الله به في قوله: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾.

وقد عقد ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله باباً من
(ص ٩٢ - ٩٩) لما تُكره فيه المناظرة والجدال والمرء، وباباً من (ص ٩٩ -
١٠٨) لإثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجَّة، أورد فيهما جملةً من
النصوص والآثار في ذلك.



٢٠ - قوله: « وترك ما أحدثه المحدثون، وصلى الله على سيدنا
محمد نبيه، وعلى آله وأزواجه وذريته، وسلم تسليماً كثيراً ».

لَمَّا بَيَّنَّ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَتْبَاعُ
السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمُ وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي
الدِّينِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ طَرِيقَتَهُمْ تَرَكُوا مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ، أَيْ ابْتَدَعَهُ
الْمُبْتَدِعُونَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَقَدْ جَاءَتْ أَدَلَّةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ
الصَّالِحِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْبِدْعِ وَالْمُحْدَثَاتِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا



صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ»، وقال: «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ»، وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وفي لفظ لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وقال ﷺ في آخر حديث العرياض بن سارية وقد مرَّ ذكره في الفائدة الأولى: «وَأَيَّاكُمْ وَمَحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

ومرَّ أيضاً حديثُ جابر في صحيح مسلم (٧٦٧) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ».

ومرَّ أيضاً في آخر الحديث الطويل عن أنس: «فَمَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَجَبُ التَّوْبَةِ عَنْ كُلِّ صَاحِبٍ بَدْعَةٍ حَتَّى يَدْعَ بَدْعَتَهُ»، قال المنذري: «رواه الطبراني وإسناده حسن» كما في الترغيب والترهيب (٦٥/١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٢).

ومرَّ في الفقرة الأولى من فقرات هذا الشرح حديثُ قصَّة الصحابي الذي ذبح أضحيته قبل صلاة العيد، وقال له ﷺ: «شَأْنُكَ شَأْنُ لَحْمٍ»، وأثرُ ابن مسعود رضي الله عنه، الذي أنكر فيه على الذين يُسَبِّحُونَ بالحصى، وقال: «فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ».



وفي كتاب السنّة لمحمد بن نصر المروزي (٨٢) عن عبد الله بن عمر قال: « كلُّ بدعة ضلالة وإن رآها الناسُ حسنة ».

وذكر الشاطبي في الاعتصام (٢٨/١) أن ابن الماجشون قال: سمعتُ مالكا يقول: « مَنْ ابتدَعَ في الإسلام بدعةً يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً ».

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم (٢٤٤/١٠) قال أبو عثمان النيسابوري: « مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، وَمَنْ أَمَرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ».

وقال سهل بن عبد الله التستري كما في فتح الباري (٢٩٠/١٣): « ما أحدث أحدٌ في العلم شيئاً إلا سئل عنه يوم القيامة، فإن وافق السنّة سلم، وإلا فلا ».

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٩٥/٢): « أجمع أهلُ الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهلَ الكلام أهلُ بدع وزيف، ولا يُعدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهلُ الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز ».

وما أحسن ما قاله الإمام بن الإمام عبد الله بن أبي داود السجستاني في مطلع منظومته الحائية:

تَمَسَّكْ بِجِبِلِّ اللَّهِ وَأَتَّبِعِ الْهُدَى	وَلَا تَكُ بَدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلَحُ
وَدِنْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالسَّنَنِ الَّتِي	أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُو وَتَرْبَحُ



وَمِنْ أَعْظَمَ مَا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ وَابْتَدَعَهُ الْمُبْتَدِعُونَ مَا زَعَمَهُ أَحَدُ
النُّوَابِتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ فِي بَحْثِي الْخَوْضِ وَالصَّحَابَةِ مِنْ أَنَّ
الصَّحْبَةَ الشَّرْعِيَّةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَبْلَ الْحَدِيثِيَّةِ، وَأَنَّ كُلَّ
مَنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ بَعْدَ الْحَدِيثِيَّةِ أَوْ لَمْ يَهَاجِرْ مِمَّنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَصْحَابِهِ، وَأَنَّ صَحْبَتَهُمْ كَصَحْبَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ فِي مَقَدِّمَتِهِمُ الْعَبَّاسُ بْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهِيَ بَدْعٌ ضَلَالَةٌ لَمْ يُسْبِقْ
إِلَيْهَا خِلَالِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَفِي الْمِثْلِ « كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ » فَكَمْ تَرَكَ
الْأَوَّلُ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ لِلْآخِرِ مِنْهُمْ، فَقَدْ تَرَكَوا لَهُ هَذِهِ الْبَدْعَةَ، فَظَفَرُ بِهَا، وَعَلَيْهِ
وِزْرُهَا وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ ابْتُلِيَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ.

وَقَدْ خَتَمَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَقْدَمَةَ رِسَالَتِهِ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ مُتَّبَعَةٌ، سَلَكَهَا بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ، فَخَتَمُوا
مُؤَلِّفَاتِهِمُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ تَأْلِيفِ هَذَا الشَّرْحِ فِي صَبَاحِ الْخَمِيسِ، الْمُوَافِقِ لِلثَّامِنِ
مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ عَامِ ١٤٢٣ هـ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا عَلَى نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ
وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا وَإِمَامِنَا مُحَمَّدٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ وَاهْتَدَى
بِهَدْيِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.





فهرس الموضوعات

- ٥ المقدمة
- ١٠ ترجمة ابن زيد القيروانى
- عشر فوائد بين يدي الشرح:
- ١ - منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة أتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح ١١
- ٢ - وسطية أهل السنة والجماعة في العقيدة بين فرق الضلال ٢٠
- ٣ - عقيدة أهل السنة والجماعة مطابقة للفطرة ٢٤
- ٤ - الكلام في الصفات فرغ عن الكلام في الذات، والقول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر ٢٦
- ٥ - السلف ليسوا مؤولة ولا مفوضة ٢٧
- ٦ - كل من المشبهة والمعطلة جمعوا بين التمثيل والتعطيل ٢٨
- ٧ - متكلمون يذمون علم الكلام ويظهرون الحيرة والتدب ٣٠
- ٨ - هل صحيح أن أكثر المسلمين في هذا العصر أشاعرة؟ ٣٥
- ٩ - عقيدة الأئمة الأربعة ومن تفقه بمذاهبهم ٣٦
- ١٠ - التأليف في العقيدة على منهج السلف ٤١
- نص مقدمة الرسالة ٤٤
- نظم مقدمة الرسالة للشيخ أحمد بن مشرف الأحسانى المالكي ٤٩



أَوَّلُ الشَّرْحِ:

- ٥٥ إثبات ألوهية الله عزَّ وجلَّ ونفي أمور سبعة يتضمَّن نفيها إثبات كمال الله.....
- ٥٦ بيان أنواع التوحيد الثلاثة وتعريفها.....
- ٥٧ بيان احتمال سورة الفاتحة والناس على أنواع التوحيد الثلاثة.....
- ٥٨ النسبة بين أنواع التوحيد الثلاثة.....
- ٥٩ العمل المقبول عند الله ما كان خالصاً ومطابقاً للسُّنة.....
- ٦١ شرح الأمور السبعة المنفية التي ذكرها المصنّف.....
- ٦٤ من أسماء الله الأول والآخر.....
- ٦٥ شرح « لا يبلغ كُنه صفته الواصفون ».....
- ٦٦ شرح « ولا يحيط بأمره المتفكِّرون ».....
- ٦٧ شرح « يعتبر المتفكِّرون في آياته ».....
- ٦٨ شرح « ولا يتفكِّرون في ماهية ذاته ».....
- ٦٩ علم الغيب لله، وغيره لا يعلم منه إلَّا ما علَّمه إيَّاه.....
- ٧٢ من صفات الله العلو والقدرة والسمع والبصر.....
- ٧٤ إثبات علو الله على عرشه بذاته.....
- ٧٦ إثبات صفة العلم لله وإحاطته بكلِّ شيء.....
- ٧٩ إثبات صفة استواء الله على عرشه، والرد على من تأوَّله بالاستيلاء.....
- ٨٢ أسماء الله وصفاته من علم الغيب، فلا يتكلَّم فيها إلَّا بالوحي.....
- ٨٢ أسماء الله كُلُّها حسنى وهي مشتقة.....
- ٨٤ أسماء الله غير محصورة بعدد.....
- ٨٥ سرد تسعة وتسعين اسماً مع ذكر أدلّتها.....
- ٩٢ من أسماء الله ما يُطلق على غيره ومنها ما لا يُطلق إلَّا عليه.....



- الله مُتَّصِفٌ بصفاتٍ ومُتَّسِمٌ بأسماءٍ أزلاً وأبداً ٩٣
- إثبات صفة الكلام لله عز وجلّ وبيان أنّه لا يتناهى ٩٤
- الإيمان بالقدر وأدلّته من الكتاب والسنة ٩٦
- مراتب القدر: العلم والكتابة والإرادة والخلق والإيجاد ٩٨
- الإيمان بالقدر من الإيمان بالغيب ويُمكن معرفة المقدّر بأمرين ٩٩
- كلّ ما هو كائن من خير وشر فبقضاء الله وقدره ١٠٠
- محيى الإرادة لمعنى كوني قدري ومعنى شرعي ديني ١٠١
- ما قدره الله وقضاه لا بدّ من وقوعه ١٠١
- بيان معنى قول الله: ﴿يَتَمَحَوُّنَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ ١٠١
- بيان معنى حديث: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» ١٠٢
- لا يجوز الاحتجاج بالقدر على ترك مأمور ولا على فعل محظور ١٠٣
- بيان معنى حديث محاجة آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام ١٠٣
- أفعال العباد مخلوقة لله عز وجلّ، وتقع بمشيئتهم، والعبد مسيرٌ مخير ١٠٥
- هداية المهتدين وضلال الضالّين بقضاء الله وقدره ١٠٧
- الفرق بين هداية الدلالة والإرشاد وهداية التوفيق ١٠٧
- أعظم نعم الله على عباده إرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم ١٠٨
- وجوب الإيمان برسول الله من قصّ علينا ومن لم يقصص ١٠٩
- الفرق بين النبيّ والرسول ١١٠
- عموم رسالة نبيّنا ﷺ، وأئمّته أئمتان: أئمة دعوة وأئمة إجابة ١١١
- علم قيام الساعة لله وحده ١١٤
- الساعة تُطلَقُ على الموت عند النفخ في الصور وعلى البعث ١١٥
- تقرير أمر البعث في القرآن يأتي ببيان ثلاثة أمور ١١٦



- ١١٨ البعثُ يكون بإعادة الأجساد التي كانت في الدنيا
- ١١٩ من فضل الله مضاعفته للمؤمنين الحسنات
- ١٢٠ تكفير الكبائر بالتوبة منها، والفرقُ بين الصغيرة والكبيرة
- ١٢٢ تكفير الصغائر باجتناّب الكبائر
- ١٢٢ من مات على كبيرة ولم يتب منها فأمره إلى الله
- ١٢٣ من عُذّب بالنار من أهل الكبائر لا يُخلد فيها
- الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، والردُّ على من قال: إنهما لا يُخلقان إلا يوم القيامة
- ١٢٥ الجنة والنار لا تفتيان ولا تبيدان
- ١٢٧ المراد بالجنة التي أُهبط منها آدم عليه الصلاة والسلام
- ١٢٩ إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الدار الآخرة
- ١٢٩ إثباتُ صفة بحيمية الله عز وجل لفصل القضاء بين العباد
- ١٣١ عرض العباد على الله ومحاسبتهم على أعمالهم
- ١٣٢ إثبات وزن أعمال العباد
- ١٣٣ إثبات الصراط وعبور الخلق عليه
- ١٣٤ الإيمان بحوض نبينا محمد ﷺ
- ١٣٦ بيان فساد مقالة أحد نوابت العصر أن أكثر الصحابة يؤخذون إلى النار... ١٣٧، ١٥٥، ١٨٧
- ١٤٢ الإيمان قولٌ واعتقادٌ وعمل
- ١٤٣ الذين قالوا: العمل غير داخل في مسمى الإيمان طائفتان
- ١٤٣ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية
- ١٤٤ الفرق بين الإسلام والإيمان
- ١٤٥ لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ما لم يستحلّه



- ١٤٦ حياة الشهداء ونعيمهم
- ١٤٦ وصول النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين في القبور
- ١٤٧ إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين فيه
- ١٤٩ الإيمان بالملائكة
- ١٥٠ من الملائكة الحفظة والكتبة الذين يكتبون الحسنات والسيئات
- ١٥١ من الملائكة الموكلون بقبض الأرواح
- ١٥٣ بيان من هم أصحاب رسول الله ﷺ
- ١٥٥ فضائل الصحابة في الكتاب والسنة
- ١٥٧ أفضل الصحابة الخلفاء الراشدون
- ١٥٨ ثبوت الإجماع على عدالة الصحابة
- ١٦١ الواجب على المسلمين لأصحاب رسول الله ﷺ
- ١٦٧ السمع والطاعة لولاة الأمر من العلماء والأمراء
- ١٦٨ الطرق التي تتم بها ولاية الأمر
- ١٧٠ النصح لولاة الأمور
- ١٧٣ السمع والطاعة للولاة إنما يكون في المعروف
- ١٧٥ الدعاء لولاة الأمور وعدم الدعاء عليهم
- ١٧٩ اتباع السلف واقتفاء آثارهم
- ١٨٢ ترك المراء والجدال في الدين
- ١٨٤ ترك البدع ومحدثات الأمور

فَتْحُ الْقَوَى الْمُتَيْنِ

فِي شَرْحِ الْأَرْبَعِينَ وَتَمَامِ الْخَمْسِينَ

لِلنَّوَوِيِّ وَابْنِ رَجَبٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ

تَأْلِيفُ

عَبْدِ الْمُجْسِنِ بْنِ حَمْدٍ الْعَبَّادِ الْبَدْرِ

دَارُ ابْنِ عَفَّانَ

دَارُ ابْنِ الْقَيِّمِ